الإمام البيضاوي وتفسيره

تعريف به وبمصادره

وما اعتنى به فيه من العلوم

د. عبد الرحمن بن معاضة بن حنش الشهري

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات القرآنية بكلية التربية – جامعة الملك سعود

- من مواليد عام ١٣٩٢هـ بمدينة النماص بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية الشريعة بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالجنوب عام ١٤١٤هـ .
- نال شهادة الماجستير من قسم القرآن وعلومه كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤١٩هـ بأطروحته:" **جهود ابن فارس الرازي في التفسير وعلوم القرآن**"، كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٢٥هـ بأطروحته: "**الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم**" (مطبوع).
- من أعماله المنشورة: "**التفسير الموضوعي في كتب أحكام القرآن**"، "**القول بالصرفة في إعجاز القرآن: دراسة نقدية**".
- البريد الشبكي: amshehri@tafsir.net

الملخص

تناول البحث التعريف بشخصية العلامة ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ وإضافته العلمية في هذا التفسير، ثم بيان أهمية تفسير البيضاوي ومنهجه في التفسير وعناية العلماء به منذ تأليفه تدريساً وتحشيةً وشرحاً، ومدى اعتماده على المصادر التي سبقته من كتب التفسير وغيرها، ومدى نجاحه في تلخيص مسائل هذه المصادر، ثم الوقوف مع طريقته في التعامل مع أصول التفسير التي ذكرها العلماء ومدى عنايته بها.

المقدمة

حظي كتاب (**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**) لمؤلفه العالم الجليل عبدالله بن عمر البيضاوي المتوفى سنة (٦٨٥هـ) بشهرة كبيرة منذ عصر مؤلفه، وعني به العلماء منذ تأليفه حتى اليوم، وهو أكثرُ التفاسير التي كُتبت عليها الحواشي والتقريرات والتعليقات والشروح، حيث كُتِبَ عليه أكثرُ من مائةٍ وثلاثين حاشية[(١)]، بعضها اكتمل، وبعضها لم يكتمل.

وقد تصدَّر لتدريسه العلماء منذ تأليفه، وأقيمت دروسه في الحرمين الشريفين وفي معظم حواضر البلاد الإسلامية في القرون المتأخرة[(٢)]، ثم فترت همم العلماء عن تدريسه في الأزمنة المتأخرة لأسباب كثيرة[(٣)].

وقد يسَّر الله لي حضور عددٍ من دروسه التي كان يلقيها علينا أستاذنا الجليل أ.د. مصطفى مسلم في منزله أيام الدراسة في مرحلة الماجستير في الرياض، حيث كنَّا نقرأ وهو يُعلِّق على الكتاب مستعيناً بحاشية زاده وغيرها، وبعد ذلك بعشرين سنةً يسَّر الله لي البدءَ بدرسٍ أسبوعيٍّ في التعليق على تفسير البيضاوي لعددٍ من طلبة العلم في أحد الجوامع، وكنتُ خلال تلك العشرين سنة أراجعه فيما يعرض لي

(١) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٥٨-٨٥. ومن أشهر حواشيه المطبوعة : نواهد الأبكار وشوارد الأفكار للسيوطي(ت٩١١هـ)، وهي محققة في جامعة أم القرى، حاشية محي الدين شيخ زاده(ت٩٥١هـ) وهي من أوسع حواشيه المطبوعة، وحاشية الشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هـ) المطبوعة باسم (عناية القاضي وكفاية الراضي)، وحاشية القونوي(ت١١٩٥هـ) وهي واسعة.

(٢) انظر: اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي لمحمد إدريس ، بحث منشور بمجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ، المجلد ٢٩ ، العدد الثاني ٢٠١٣.

(٣) لعل من أسباب فتور العلماء عن تدريسه أنه كان في عهد الدولة العثمانية معتمداً في التدريس في ولاياتها، ثم لما تقلصت سلطتها قلَّت العنايةُ به في حلق التعليم والله أعلم.

من المسائل، وأقرأ فيه استعداداً لدروس التفسير التي ألقيها هنا وهناك، وقد لمستُ من مصاحبة هذا التفسير مزاياه وعيوبَه، وقرأتُ معظمَ البحوث والدراسات التي أُنجزت عنه وعن منهجه، وجمعت مخطوطات الكتاب للإفادة منها في تصحيح العبارات التي وقعت في الطبعات المختلفة، رغبةً في تحقيقه تحقيقاً علمياً يليق بقيمته العلمية، وبمكانة مؤلفه.

وقد لمستُ حاجةً لإلقاء الضوء على مصادر المؤلف الرئيسة التي اعتمد عليها، وتأثر بها في تفسيره، خصوصاً أنَّ الدراسات السابقة التي كُتبت عن منهجه ومصادره، كلّها قد أُنجزت منذُ أكثرَ مِن عشرين سنة، وقد طُبِعَ بعد ذلك عددٌ من التفاسير المهمَّة التي اعتمد عليها البيضاوي وكانت في حكم المفقود أو المخطوط حينذاك. كما أتوقف عند أصول التفسير التي اعتمدها البيضاوي ومدى مراعاته لها، ليستفيد طالب العلم من ذلك عند النظر في هذا التفسير، وكل ذلك على وجه الإيجاز غير المخل إن شاء الله.

الدراسات السابقة :

- البيضاوي ومنهجه في التفسير، لعبدالرحمن بن علي ناشب البشري، رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سجلت عام ١٤٠١هـ ونوقشت عام (١٤٠٤هـ).

- البيضاوي ومنهجه في التفسير، ليوسف أحمد علي، وهي رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، نوقشت عام (١٤٠٥هـ) تقريباً.

- البيضاوي مفسراً، تأليف د.عبدالعزيز حاجي، وهي رسالة ماجستير كتبت عام (١٤١١هـ) ولا أعلم في أي جامعةٍ قدمت.

وهذه الرسائل الثلاث تكاد تتطابق في مضمونها بنسبة ٨٥٪ تقريباً، ويزيد

بعضها على بعض ببعض المباحث كما فعل البشري بموازنته تفسير البيضاوي مع الزمخشري وأبي السعود والنسفي في عددٍ من المسائل التي تناولوها، غير أنهم فاتهم بعض المسائل في مدى تأثر البيضاوي بالمصادر الأساسية التي نقل منها، ولم يدرس أحدٌ منهم مدى مراعاة البيضاوي لأصول التفسير التي اعتمدها المفسرون وأصَّلوها في كتبهم ومؤلفاتهم، فأحببت تسليط الضوء على هذه المسائل بشيء من الاختصار المناسب لهذا البحث .

وقد قسَّمتُ البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة على هذا النحو:

الفصل الأول: التعريف بالبيضاوي وتفسيره ومصادره، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالإمام البيضاوي.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير البيضاوي ومنهجه.

المبحث الثالث: مصادر تفسير البيضاوي.

الفصل الثاني: أصول التفسير عند البيضاوي، وفيه تمهيد وجيز عن المقصود بأصول التفسير، وخمسة مباحث على هذا النحو:

المبحث الأول: عنايته بتفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثاني: عنايته بالحديث النبوي والتفسير بالسنة .

المبحث الثالث: عنايته بتفسير السلف .

المبحث الرابع: عنايته بالصناعة اللغوية في تفسيره.

المبحث الخامس: أثر علم الكلام في تفسيره.

ثم **الخاتمة** التي ضمنتها بعض النتائج التي توصل إليها البحث.

منهج البحث :

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي في تتبع التأثر والتأثير بين تفسير البيضاوي ومن سبقه أو أتى بعده، كما اتبعت المنهج الاستقرائي في قراءة تفسير

البيضاوي كاملاً لاستخراج الأمثلة والشواهد على مسائل البحث، واتبعت المنهج الوصفي في وصف المنهجية التي اتبعها البيضاوي في تفسيره، وهذه المناهج تتقاطع في خدمة هذا البحث بمختلف مباحثه ومسائله.

وقد وثقت الأحاديث والآثار من خلال كتب السنة باختصار، وعرفت بالأعلام الذين رأيت للتعريف بهم حاجة بإيجاز.

وأرجو أن يجد المطالع للبحث فائدة، وأن يفيدني بما يظهر له من خللٍ، والله الموفق.

الفصل الأول

التعريف بالبيضاوي وتفسيره ومصادره

المبحث الأول : التعريف بالإمام البيضاوي[1] :

اسمه ونسبه :

هو ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن علي القاضي البيضاوي الشيرازي، الشافعي. والبيضاوي نسبةً إلى البيضاء[2] وهي مدينة كبيرة من بلاد فارس، ينتسب إليها جماعة من العلماء.[3]

نشأته وحياته العلمية :

ولد الإمام البيضاوي سنة (٥٨٥هـ) تقريباً بمدينة البيضاء، وتوفي بمدينة تبريز[4] عام (٦٨٥هـ) عن مائة عامٍ[5]. وقد نشأ في أسرة ذات علمٍ ودينٍ وفضلٍ، فأبوه

(١) مصادر ترجمته : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٥٧، البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣٠٩، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٧٢، شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٩١، طبقات المفسرين للأدنه وي ١/ ٢٥٤، الأعلام للزركلي ٤/ ١١٠، معجم المؤلفين لرضا كحالة ٦/ ٩٧، البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري، البيضاوي ومنهجه في التفسير ليوسف أحمد علي، الإمام البيضاوي لمحمد الزحيلي، البيضاوي مفسراً لعبدالعزيز حاجي.

(٢) الفرس اليوم ينطقونها (بيزا) واسمها بالفارسية (نسايك) وبينها وبين شيراز اليوم ٢٤ ميلاً، وهي مدينة مشهورة بمحافظة فارس في منطقة إصطخر، وإنما سميت البيضاء للون قلعتها الأبيض التي تظهر من بعيد للقادم إليها، وكانت هذه المدينة من أكبر مدن كورة إصطخر، وتحيط بها المراعي وحقول القمح الخضراء. انظر: مراصد الاطلاع للبغدادي ١/ ٢٤٢، بلدان الخلافة الشرقية للمستشرق كي لسترنج ٣١٦.

(٣) منهم أبو بكر أحمد بن محمد البيضاوي الشافعي المتوفى بين (٤٠٠ - ٥٠٠هـ) حيث صنف عدة كتب منها التبصرة في الفقه، والأدلة في تعليل مسائل التبصرة، والتذكرة في شرح التبصرة، والإرشاد في شرح كفاية الصيمري، وقد نسبت بعض مؤلفاته لناصر الدين البيضاوي خطأ.

(٤) تبريز أشهر مدن أذربيجان، بينها وبين نيسابور ٢٢٠ فرسخاً، تقع اليوم شمال غرب إيران. انظر: معجم البلدان للحموي ١/ ٤١٦، الغاية القصوى للبيضاوي ١/ ٥٤.

(٥) لم يعين أحدٌ ممن ترجم له سنة ولادته، ولكن ابن حبيب في ترجمته له قال:«كانت وفاته بمحلة تبريز عن=

وجدُّه توليا منصب قاضي القضاة، وخاله شهاب الدين أبو بكر ابن الإمام نجم الدين عبدالرحمن البيضاوي كان إماماً.

وقد نشأ في كنف هذه الأسرة العالمة، فقد تلقى العلم على يدي والده أولاً، ثم رحل به إلى شيراز[(١)]، وكان مقرباً للأتابك أبي بكر سعد، فعينه قاضياً للقضاة فيها. وقد أخذ البيضاوي عن علماء شيراز حتى صار مبرزاً فيهم، وما لبث أن تولى فيها القضاء، لكنه ما لبث أن صُرِف منه لشدته في الحق، فرحل إلى تبريز وعرف أهلها له فضلَه فتولى القضاء بها أيضاً[(٢)]، وقيل: إنه طالت مدة ملازمته لوالي تبريز، فاستشفع البيضاوي بشيخه محمد بن محمد الكتحتائي، وكان مقرباً من الوالي لتوليته القضاء، فلما أتاه على عادته قال: إِنَّ هذا الرجل عالمٌ فاضلٌ، يريد الاشتراك مع الأمير في السعير، يعني أَنَّه يطلب منكم مقدارَ سجادةٍ في النار، وهي مجلس الحكم، فتأثر البيضاوي من كلامه وترك المناصب الدنيوية، ولازم الشيخ إلى أن مات[(٣)].

وأول مشايخه هو والده أبو القاسم عمر بن محمد البيضاوي، كان إماماً متبحراً جمع بين العلم والتقوى، وتقلد القضاء بشيراز، درس وأسمع وحدث وروى عن شيخه عبدالرحمن السجستاني، وتوفي في ربيع سنة (٦٧٥هـ). وقد ذكره البيضاوي

=مائة»، ومع اتفاق المترجمين على وفاته سنة ٦٨٥هـ يكون مولده هكذا.

(١) شيراز بلد عظيم مشهور في وسط إقليم فارس وعاصمتها أيام البيضاوي، وقد أنشأ فيها البويهيون بيمارستاناً، وخزانة كتب كبيرة، وكان فيها ثلاثة مساجد كبيرة جامعة، وكانت في غاية الحسن ذات أسواق عامرة، وكانت ذات سبع عشرة محلة وتسعة أبواب، وكان يشقها خمسة أنهار تصب في بحيرة على مسيرة بضعة فراسخ شرق المدينة، وكانت محلاً لصناعة الأكسية والبرود الجياد وغيرها، ولا تزال حتى اليوم تحتفظ بمكانة كبيرة بين المدن الإيرانية. انظر:مراصد الاطلاع للبغدادي ٢/ ٨٢٤، بلدان الخلافة الشرقية لكي لسترنج ٢٨٤.

(٢) يذكر المترجمون قصة طريفة لذلك طالعها في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٥٨.

(٣) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ١٨٦-١٨٧.

في مقدمة كتابه (الغاية القصوى) وذكر أخذه عنه ودراسته على يده.[١]

ومن شيوخه الكتحتائي الذي سبق ذكره ، وكان له بالغ الأثر في ترك البيضاوي للقضاء والمناصب الدنيوية، ولازمه البيضاوي إلى أن مات، وصنَّف التفسير – كما يقال – بإشارة منه، ولما مات دفن عند قبره[٢].

وأما تلاميذه فمن أبرزهم فخر الدين الجاربردي أبو المكارم أحمد بن الحسن بن يوسف، الإمام الفاضل المتفنن، كان مواظباً على الاشتغال بالعلم وإفادة الطلبة، اجتمع بالإمام البيضاوي وأخذ عنه، وشرح كتابه (المنهاج) في أصول الفقه، وشرح (الحاوي الصغير) ولم يكمله، وله على الكشاف حواشٍ مفيدة، توفي بتبريز سنة (٧٤٦هـ)[٣].

ومن تلاميذه كمال الدين المراغي عمر بن إلياس بن يونس، أبو القاسم الصوفي الشيخ الصالح الخيِّر، كان له حظٌ كبير من الاشتغال بالعلوم، وقد سمع من القاضي البيضاوي المنهاج، والغاية القصوى، والطوالع، وكان قد قدم دمشق سنة (٧٢٩هـ) وهو ابن نيف وثمانين سنة.[٤]

ومن تلاميذه عبدالرحمن بن أحمد الأصفهاني، وهو والد الإمام شمس الدين محمود الأصفهاني مؤلف كتاب (أنوار الحقائق الربانية) في التفسير، وقد قرأ الابن على أبيه كتب البيضاوي كالمنهاج في الأصول، والغاية القصوى في الفقه وكان يحفظها، وأحسب أنه قد تأثر به في تأليف كتابه (أنوار الحقائق الربانية) وإن كنتُ لم

(١) الغاية القصوى في دراية الفتوى ١/ ١٨٤.

(٢) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ١٨٧، البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٥٨-٨٥.

(٣) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٨، شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ١٤٨،البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٣٧.

(٤) انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٨، البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٣٧.

أَرَ المحققين أشاروا لذلك في مصادره.[١]

وقد أثنى كثيرٌ من العلماء على البيضاوي، وعلى جودة مصنفاته، فقال ابن حبيب الدمشقي(ت٧٧٩هـ) : « عالمٌ نمى زرعُ فضله ونجم، وحاكمٌ عظمت بوجوده بلادُ العجم، برع في الفقه والأصول، وجمع بين المعقول والمنقول ».[٢]

وهو شافعي المذهب باتفاق، حيث تفقه على هذا المذهب الذي كان غالباً على أهل بلدته، وتولى القضاء للحكم على مذهب الشافعي، وصنف بعض المؤلفات الفقهية على مذهب الشافعي، ويتضح ذلك من خلال تفسيره في مواضع كثيرة.[٣]

مصنفاته :

عُرف البيضاوي بكثرة التصانيف النافعة، حتى وصف بصاحب التصانيف، وقد وصفوها بالتحقيق والجودة. قال اليافعي : «وللقاضي ناصر الدين مصنفات عديدة، ومؤلفات مفيدة »، ثم قال بعد أن عدد شيئاً منها: «وغير ذلك مما شاع في البلدان، وسارت به الركبان».[٤] ووصفها الصفدي بأنها تصانيف بديعة مشهورة [٥]. وقال المراغي: «ألَّف مصنفات عدة تدل على قدم راسخة بالتأليف، وبراعة فائقة في التصنيف».[٦] ومن أشهر تلك المؤلفات :

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المشهور بتفسير البيضاوي، وسيأتي بيان

---

(١) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٥٨-٨٥، وانظر: أنوار الحقائق الربانية للأصبهاني ، تحقيق د.إبراهيم الهويمل، ١/ ٨٧ وقد حقق هذا التفسير في خمس وعشرين رسالة دكتوراه بقسم القرآن بجامعة الإمام ولم يطبع بعدُ. وهو تفسير اعتمد على تفسير الثعلبي، وتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي كما ذكر المحققون، ولم يجدوا أثراً ظاهراً للبيضاوي في التفسير مع تتلمذ الأصفهاني على والده الذي تتلمذ على البيضاوي.

(٢) درة الأسلاك لابن حبيب ٢١٤.

(٣) نقل عن الشافعي كثيراً في تفسيره ، مثل : ١/ ٣٨٧، ٤٣٠، ٢/ ٤٥٠، ٥٠٢ .

(٤) انظر : مرآة الجنان لليافعي ٤/ ١٦٥ ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٢٢٠.

(٥) انظر : الوافي بالوفيات للصفدي ١٧/ ٣٧٩.

(٦) الفتح المبين في طبقات الأصوليين للمراغي ٢/ ١٥٢.

قيمته العلمية ومنهجه.[١]

٢- منهاج الوصول إلى علم الأصول، وهو مختصر في أصول الفقه، شُرح عدة شروح ، وله مكانة كبيرة بين كتب الأصول.[٢]

٣- تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة، وهو في شرح مصابيح السنة في الحديث شرحاً وجيزا.[٣]

٤- طوالع الأنوار في مطالع الأنظار، في علم الكلام، عليه شروح.

٥- الغاية القصوى في دراية الفتوى، في الفقه الشافعي.[٤]

(١) طبع عدة طبعات، أولها الطبعة الأولى في ألمانيا سنة ١٨٤٤م بعناية المستشرق فليشر الألماني وتقع في مجلدين ثم قام المستشرق الألماني ويناندفل بوضع فهارس لها طبعت في ليبسك سنة ١٨٧٨ م، ثم طبع في بولاق بمصر سنة ١٢٦٣هـ وتقع في مجلدين.ثم طبع في مصر أيضاً سنة ١٢٨٢هـ وسنة ١٣٠٣هـ وبهامشيه حاشية أبي الفضل الكازروني. ثم طبع في مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة سنة١٣٤٤هـ، وطُبع في الآستانة سنة ١٢٨٥هـ وسنة ١٢٩٦هـ وسنة١٣٠٥هـ ، و ١٣١٣هـ، وطبع في لكنو وبومباي في الهند، وطبع في طهران بإيران، ثم طبعة أولى بدار صادر في بيروت سنة ٢٠٠١م في مجلدين. ثم طبع مؤخراً عدة طبعات من أمثلها طبعة دار الرشيد بتحقيق حلاق والأطرش، وهي حافلة بالأخطاء في قراءة النص، وهو جدير بالتحقيق وإعادة النشر ومراعاة حسن الإخراج.

(٢) طبع عدة طبعات، وشرح عدة شروح من أشهرها شرح السبكي وشرح الجاربردي. انظر: القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه، للدكتور جلال الدين عبدالرحمن.

(٣) طبع عن دار النوادر بالتعاون مع الرقيم للبحوث والدراسات بقطر، تحقيق لجنة علمية، وصدرت الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ وفيه دلالة على معرفة بالسنة النبوية وعلومها، وقد يكون ألفه بعد تفسيره والله أعلم.

(٤) حققه الدكتور علي محي الدين قره داغي، وطبعته دار الإصلاح بالدمام ، ودار البشائر بلبنان (١٤٢٧هـ).

المبحث الثاني : التعريف بالتفسير ومنهجه

اسم هذا التفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) واشتهر بتفسير البيضاوي، وهو أشهر مؤلفاته، وقد رزق قبولاً عند العلماء بعده، فعكفوا على دراسته وتدريسه وتأليف الشروح والحواشي عليه، حتى بلغت حواشيه أكثر من مائة وثلاثين حاشية وتعليقاً.(١) وقد لقي بسبب تأليفه لهذا التفسير حفاوة من علماء عصره وأمرائهم، قال الخوانساري: «وقد صار هذا الكتاب منتشراً في العالم، وسبب تقربه عند سلطان العصر »، وقال أيضاً: «صاحب التفسير المعتمد عليه عند جمهور العلماء».(٢)

ويقول الموسوي:«وأشهر مصنفاته في زماننا هذا تفسيره ».(٣)، وقال العزاوي : «وصار تفسيره يُدَرَّسُ في المدارس العلميَّة، ويُعَدُّ مِن كتب التفسير المعتبرة ».(٤)

ويقول جلال الدين السيوطي في حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ « نواهد الأبكار وشوارد الأفكار»:«وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخَّصَ هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مُستجاد، ومَازَ فيه أماكنَ الاعتزال، وطرحَ موضعَ الدسائس وأَزَال، وحرَّر مُهماتٍ، واستدركَ تتماتٍ، فظَهَر كأَنَّهُ سبيكةُ نُضَارٍ، واشتهر اشتهار الشمسِ في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهَج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكَبَّ عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة ».(٥)

---

(١) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ١٨٧، البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٥٨.

(٢) روضات الجنات للخوانساري ٤٥٤.

(٣) نزهة الجليس للموسوي الحسيني ٢/ ٨٧.

(٤) التعريف بالمؤرخين للعزاوي ١١٦.

(٥) نواهد الأبكار للسيوطي ١/ ١٣.

وكل هذا الثناء لا تكاد تجده على كتاب آخر من كتبه، وهو مختصر في أسلوبه، دقيق في عبارته، حوى المعاني الكثيرة، والمسائل المتفرقة التي جمعها من مصادره من كتب التفسير قبله، مع ما أضافه هو من علمه واستنباطه.

ولذلك قال عنه محمد الفاضل بن عاشور: «أصبح تفسير البيضاوي بمحتواه ومنهجه وأسلوبه أثراً سامي القيمة، أسدى به القاضي يداً بيضاء للباحثين والدارسين، إذ قرَّب منهم المستعصي، وجمع لهم المتفرق، وضبط لهم تحرير غير المحرر، وسمى كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) »، ثم قال : « فأَحلَّهُ الناسُ منذ بُروزهِ واشتهاره في النصف الثاني من القرن السابع محلَّ الاعتمادِ والإقبال، وعكفوا عليه عُكوفَهُم على المرجعِ الأصليِّ للتفسير... وبذلك فإنَّ تفسير البيضاوي -على ما يبدو عليه من اختصار، وما يتبادر لمتناوله بادئَ الرأي من بساطة- قد أصبح كتاباً عميقَ الغَورِ، صعبَ المراسِ، ثَريَّ المطاوي...فأصبح تدريسهُ ميداناً للمَلَكَاتِ الراسخة، ومجَالاً لقوةِ العوارض، ونفوذِ الأنظار، وسُموِّ البيان، وتتابعت العناية به لذلك: تدريساً، وتخريجاً، وتأليفاً، فزيادة على الكتب التي ترجع إليه أصالةً من الحواشي والتعليقات التي لا تكاد تدخل تحت حصر، فإنه ما من مفسرٍ للقرآن في القرن السابع وما بعده، إلا وتفسيرُ البيضاوي في طليعة مراجعه».[1]

ويتحدث ابن عاشور عن قيمة تفسير البيضاوي ثم يقول: «حتى أصبح تدريسُه منتهى مبلغ الهممِ العليَّةِ، وميزان الملَكات والمواهب، فوُضِعَ في أعلى الهيكلِ الهَرَميِّ لمواد التخرُّجِ في العلوم الإسلامية، وعَمَّتْ منزلته تلك أقطار الإسلام في المشارق والمغارب، فتأَصَّلت منزلته أولاً في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، والتزم في المناهج الدراسية ببلاد فارس وبلاد الأفغان والأقطار الهندية، ثم كان من جملة ما

(١) التفسير ورجاله لابن عاشور ٩٣ .

تسرَّب من الملتزمات التعليمية من البلاد الفارسية إلى آسيا الصغرى وعموم الممالك العثمانية، واشتهر بمصر من قبل الفتح العثماني، إذ كان من الكاتبين عليه من العلماء المصريين في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر القاضي زكريا الأنصاري والإمام السيوطي، وعظم شأنه في القرن العاشر بانتظام أهم معاهد العلم في البلاد العربية في تاج الخلافة العثمانية، وخاصة الجامع الأزهر وجامع الزيتونة... فأصبح تفسير البيضاوي ملتزم التدريس من أقاصي الهند إلى المغرب الأقصى ».[١]

منهجه في التفسير:

أوضح البيضاوي شيئا من منهجه في التفسير في مقدمة كتابه فقال: «ولطالما أحدِّث نفسي بأن أصنِّف في هذا الفن -يعنى التفسير- كتاباً يحتوى على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومَن دونهم من السَلَف الصالحين، وينطوي على نِكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومَن قبلي مِن أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعْزِيّة[٢] إلى الأئمة الثمانية المشهورين[٣]، والشواذ المروية عن القرَّاء المعتبرين، إلاَّ أن قصور بضاعتي يُثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ».[٤]

وقد لخص البيضاوي في مقدمته ما ينبغي على المفسر أن يكون عليه من العلم

---

(١) التفسير ورجاله لابن عاشور ٩٩-١٠٠ وانظر : كشف الظنون ١/ ١٦٢، نموذج من الأعمال الخيرية لمحمد منير الدمشقي ٣٧٨.

(٢) المعزِيَّة مِن عَزيته، يقال: عَزُوتُه إلى أبيه وعَزيتُه.

(٣) هم القراء السبعة ابن كثير المكي، ونافع المدني، وابن عامر الشامي، وأبو عمرو البصري، وعاصم الكوفي، وحمزة الكوفي، والكسائي الكوفي، إضافة ليعقوب الحضرمي البصري.

(٤) تفسير البيضاوي ١/ ١٠.

فقال: «وبعدُ فإن أعظم العلوم مقداراً، وأرفعها شرفاً ومناراً علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها: أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها ».[1]

فهو يشترط في المفسر أن يكون:

١- عارفاً بالعلوم الدينية كلهاً أصولاً وفروعاً، وهذا يشمل علوم المقاصد كالفقه والحديث والتفسير، وعلوم الآلة كأصول الفقه وعلوم الحديث، وغيرها. وهذا شرط صعبٌ جداً يدل على تشدده في شروط المفسر.

٢- متقناً لعلوم العربية كالنحو والصرف وغيرها.

٣- متفوقاً في الفنون الأدبية كالشعر وفهمه، والبلاغة وأساليبها، وغير ذلك من فنون الأدب العربي ومهاراته؛ حتى يتمكن من تحليل كلام الله وفهمه فهماً صحيحاً على سنن العرب في كلامها.

وهو لم يشترط هذه الشروط إلا وهو يرى نفسه قد حصَّلها، وأباح لنفسه بعد ذلك الإقدام على تفسير القرآن، وهو فيما يبدو لم يكتب التفسير إلا في آخر عمره، أي في النصف الثاني من القرن السابع،[2] حين اكتملت ملكاته العلمية، وبَرع في علوم الدين، وصنَّفَ في هذه العلوم قبل أن يؤلف تفسيره، وبذلك حقق اشتراطه للمفسر أن يكون عالماً بالدين أصوله وفروعه، وبفنون العربية وصناعتها، والأدب وفنونه.

ويمكننا تلخيص معالم منهجه الذي سار عليه في تفسيره على النحو التالي دون الوقوف عند الأمثلة، حيث ستأتي في دراسة أصول التفسير عنده :

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٥.

(٢) انظر : التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ١٣٤.

أولاً: من منهجه أنَّه يستعين بتفسير القرآن بالقرآن في مواضع كثيرة، وكذلك يستعين بالأحاديث النبوية والآثار من التفسير المأثورة عن الصحابة والتابعين وأتباعهم.

ثانياً: ظهر في تفسيره عنايته بالقراءات المشهورة للقراء الثمانية وهم السبعة إضافة ليعقوب، وأورد قراءات من الشواذ عن أكثر من ثلاثين قارئاً، مع العناية بتوجيهها في حالات كثيرة إذا كانت مؤثرة في بيان معنى الآية.(١)

ثالثاً: غلب على البيضاوي منهج التلخيص والاختيار من كتب التفسير التي سبقته، وخصوصاً تفسير الزمخشري والراغب الأصفهاني وفخر الدين الرازي(٢)، ويغلب على ظني انتفاعه بتفسير الواحدي(٣) المسمى (البسيط) ومن تفسير الثعلبي المسمى (الكشف والبيان)، فهما تفسيران مؤثران في تلك المنطقة التي عاش فيها البيضاوي، وهي بيئة بلاد فارس.

رابعاً: البيضاوي يعد من كبار مفسري الأشاعرة المتكلمين البارعين في علم الكلام، ولذلك فإنه إذا مر بآية فيها أمرٌ عقدي فإنه يذكر أقوال الفرق فيها، ويرجح قول الأشاعرة، ويردُّ على من يخالفه. وقد أكثر من توظيف علم الكلام في تفسيره، ولا تكاد تمر آية لها متعلق بمسألة كلامية إلا ويتعرض لها.

خامساً: عند تفسيره لآيات الأحكام المشتملة على أحكام فقهية يذكرها باختصار، ثم يرجح غالباً مذهب الإمام الشافعي، ويقتصر في الموازنة بين المذاهب على المذهب الحنفي والمالكي والشافعي، وهذا الغالب في تفسيره.

---

(١) انظر: القراءات الشاذة وتوجيهها في تفسير القاضي البيضاوي، لمحمد غياث الجنباز ٣٠.

(٢) هو أبو عبدالرحمن فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي، المفسر الأصولي الشافعي، له تصانيف كثيرة أشهرها التفسير الكبير، مات سنة ٦٠٦هـ . انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢١٥.

(٣) علي بن أحمد النيسابوري الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ إمام من أئمة التفسير ، له كتاب في أسباب النزول من أشهر المؤلفات، وله ثلاثة كتب في التفسير كلها مطبوعة وهي الوجيز والوسيط والبسيط، وأكثرها تأثيراً هو البسيط . انظر : البسيط للواحدي ١/ ٣٤٧.

سادساً: غلبت عليه نزعته الأصولية في تفسيره، فلا تكاد تمر آية فيها دلالة أصولية إلا ويستخرج هذه الدلالة وينص عليها، وقد قامت إحدى الباحثات بجمع استدلالاته الأصولية من الآيات القرآنية في بحث مفرد.(١)

سابعاً: ومن منهجه أنه لا يذكر الروايات الإسرائيلية إلا نادراً، ويوردها بصيغة التمريض بقوله: رُوي، أو قيل؛ إشعاراً منه بضعفها.

ثامناً: من منهجه إذا عرض للآيات الكونية فإنَّه يخوض في مباحث الكون والطبيعة، وهذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي الذي يعتبر أحد مصادره الأساسية، ثم إن القرن السابع ازدهرت فيه صناعة علم الفلك والهيئة، بعد بناء مرصد فلكي في مدينة المراغة بفارس، وللبيضاوي كتابٌ مختصر في علم الهيئة، ولذلك يجد في مرور الآيات الكونية متنفساً للاستطراد وذكر بعض المعلومات الفلكية.

تاسعاً: من منهجه أنه يقدم الوجه الأقوى عنده في تفسير الآية، ثم يعقبه بالأقوال الأقل قوة فإذا ذكرها بصيغة التمريض دل ذلك على أنه يضعفها، سواء قلنا أنه يرجح غيرها عليها، أو يردها مطلقاً.

(١) هي الباحثة عبير بنت إبراهيم السكيتي ، حيث كتبت بحثها للماجستير بعنوان (استدلال البيضاوي بالقرآن الكريم على المسائل الأصولية في تفسير: أنوار التزيل وأسرار التأويل – جمع ودراسة) بإشراف الزميل د.عبدالمحسن الصويغ عام ١٤٢٦هـ.

المبحث الثالث : مصادر تفسير البيضاوي

أوضح البيضاوي في مقدمته أنه سيجمع فيه صفوة ما بلغه عن الصحابة والتابعين وأقوال السلف، وما يستنبطه هو ومن قبله من أفاضل العلماء المحققين.[1] وسأتوقف في هذا المبحث مع مصادره من كتب التفسير الرئيسية التي اعتمد عليها في تفسيره، مع عدم إشارته إليها، ويمكن للقارئ الخبير بها إدراك أثرها في تفسيره من خلال الموازنة، وتتبع الأفكار والأقوال التي يوردها.

مصادره من كتب التفسير:

نشأ البيضاوي في القرن السابع الهجري في بيئة علمية ورثت الكثير من المؤلفات والموسوعات في العلوم الإسلامية، وازدهرت ظاهرةُ تأليف المختصرات في العلوم، ولذلك صنَّف البيضاويُّ تفسيرَه معتمداً على معرفتهِ وعلمه وتضلعه من شتى العلوم والمعارف، ثُم على نُخبةٍ من كتب التفسير المشهورة والمؤثرة في بيئته التي نشأ فيها في بلاد فارس.

وهو في مقدمته للتفسير أوضح مصادره بشكلٍ عام، ولم يُصرِّح باسم عالم أو كتاب اعتمد عليه، إلا أنَّ مصادر ترجمته أوضحت أنهُ اعتمد على ثلاثة تفاسير، هي تفسير الراغب الأصفهاني(ت٤١٠هـ)، وتفسير الكشاف للزمخشري(ت٥٣٨هـ)، وتفسير الرازي (ت٦٠٦هـ).

وقد كنتُ أثناء تدريسي لتفسير البيضاوي أراجعُ هذه التفاسير على الترتيب في كل درسٍ وأسجل الفروق، وأجده لا يكاد يخرج عنها إلا نادراً، وأكثرها تأثيراً في تفسيره هو الكشاف للزمخشري، ثم تفسير الراغب الأصفهاني، ثم تفسير الرازي.

وهناك مصدر مؤثرٌ في تفسير الزمخشري والرازي والبيضاوي تبعاً دون أن يظهرَ

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٥.

اسمه عند الدارسين وهو(التفسير البسيط) للإمام علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) ظاهر الأثر في تفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير الرازي.

يقول د.علي العماري في كتابه عن الرازي: « والرازي كثير النقل عن الواحدي بصورة واضحة، وربما نص على بعض كتبه عند النقل عنه... والرازي قد يناقش ما ينقله هذا العالم الكبير عن رواة اللغة ».[١] بل إِنَّك تجدُ روح الواحدي وخصوصاً في كتابه البسيط ساريةً في كتاب التفسير الكبير للرازي.[٢] وهي في تفسير الزمخشري ظاهرة كذلك، غير أن الزمخشري لاختصاره، لا يكاد يتنبه الباحث لأثر كتب الواحدي فيه.

وقد جاء البيضاويُّ فلخصها وحوى خلاصتها بعبارتهِ الموجزةِ المركَّزةِ التي تصلُ في بعض المواضع إلى حدِّ الغُمُوضِ، أو الإخلال.

وسوف أتوقف مع هذه المصادر الثلاثة التي ذكر العلماء اعتمادَ البيضاوي عليها، وهي حسب التريب الزمني لمؤلفيها :

أولاً : تفسير الراغب الأصفهاني

يغلب على ظني عدم اطلاع من درس منهج البيضاوي من قبل على هذا التفسير، حيث لم يُحقَّق إلا بعدَ بحوثهم بسنوات، ولذلك فإِنهم يمرون على هذا المصدر دون توقف، أو يظنون أنَّ المقصود هو كتاب المفردات للراغب الأصفهاني وليس التفسير.[٣] قال الفاضل بن عاشور: «واعتمد - أي البيضاوي - في تحرير المعاني الذوقية، واستجلاء نكت الإشارات إلى دقائق المعارف على تفسير الراغب

(١) الإمام فخر الدين الرازي للدكتور علي محمد حسن العماري ص ١٤١.

(٢) انظر: البسيط للواحدي ، تحقيق د.محمد الفوزان ١/ ٣٥٠.

(٣) انظر : البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ٩٨، البيضاوي ومنهجه في التفسير ليوسف أحمد علي ٧٢، البيضاوي مفسراً لعبدالعزيز حاجي ٢٠٩.

الأصفهاني، من مشاهير المفسرين من أهل السنة في القرن الرابع، وهو كتاب (مفردات القرآن) المطبوع المشهور ».[١]

وتفسير الراغب كبيرٌ، حُقِّق جزءٌ منه من أول القرآن حتى نهاية المائدة تقريباً، ولم يطبع منهُ إلا مقدمته مع تفسير الفاتحة وأول البقرة[٢]، ومن أول سورة آل عمران إلى الآية (١١٣) من سورة النساء[٣]، وهو تفسيرٌ واسعٌ يهتم بمفردات القرآن الكريم، واشتقاقها، وهو مختلف عن كتاب المفردات للمؤلف نفسه، من حيث المادة والتوسع. وقد لخص البيضاوي منه ما يتعلق بالاشتقاق، وبيان المفردات اللغوية، وغير ذلك.

وقد تتبع محقق تفسير الراغب الأصفهاني التفاسير التي نقلت منه ووازن بينها، واستقصى أثره فيها، وفاته الموازنة مع تفسير البيضاوي الذي يُعتبر من أهم التفاسير التي نقلت عن تفسير الأصفهاني.[٤]

وقد قمتُ بالموازنة بين تفسير البيضاوي وتفسير الأصفهاني المطبوع منه من سورة آل عمران حتى (١١٣) من سورة النساء فوجدت أثره ظاهراً فيه، حيث إن الراغب كان يولي عناية خاصة للمفردات اللغوية، وأصول اشتقاقها ويطيل في ذلك، وعنايته بالصناعة اللغوية ظاهرة في تفسيره.

ومن أمثلة تأثر البيضاوي بتفسير الراغب الأصفهاني في تفسيره ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣].

---

(١) التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ١٣٥ ، وانظر : كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ٣٥٦، والقاضي البيضاوي للزحيلي ١٣٢.

(٢) حققه ونشره د.أحمد حسن فرحات ، مكتبة الدعوة بالكويت عام ١٤٠٥هـ .

(٣) حققه ونشره د.عادل الشدي ونشره في دار الوطن بالرياض عام ١٤٢٤هـ.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ، تحقيق د.عادل الشدي ١/ ١٢١وما بعدها.

قال الأصفهاني في تفسيرها: «والتوراة عند الكوفيين تَفْعَلَةٌ[1]، وليس في كلام العرب تَفْعَلَةٌ بوجهٍ، وإنما هو تَفْعُلَةٌ نحو تَتَفُلَةٌ، وتَفْعِلَةٌ نحو تَكْرِمَةٌ.[2] وقيل: أصلهُ تَفْعِلَة، فعدلَ عن الكسرة إلى الفتحة.

وعند البصريين هي فَوْعَلَة نحو حَوْقَلَةٌ، وصَومَعَةٌ، فأبدل من الواو تاء، كما أبدل في تَوْصِيَة وتَيْقُور من الوقار.[3]

والإنجيل: إِفْعِيلٌ من النَّجْلِ[4]، والنَّجْلُ مستعمل في الأصلِ وفي الولد».[5] فنلاحظ تفصيل الأصفهاني في بيان أصل اشتقاق هاتين المفردتين.

وإذا نظرنا في تفسير الزمخشري نجده يقول:«والتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ اسمان أعجميان. وتكلُّفُ اشتقاقِهما من الوَرَى والنَّجل ووزنهما بتَفعِلَة وإِفْعِيل إنما يصحُّ بعد كونهما عربيين. وقرأ الحسن: الأنجيل، بفتح الهمزة، وهو دليل على العُجمة؛ لأَنَّ أَفعيل- بفتح الهمزة- عديمٌ في أوزان العرب ».[6]

وكأَنَّ الزمخشريَّ بكلامهِ هذا يرد على الراغب الأصفهاني في تحليله للمفردتين. وإذا نظرنا في تفسير البيضاوي للآية وجدناه يقول: «واشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسفٌ لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرئ الأنجيل بفتح

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ١٠، التفسير الكبير للرازي ٧/ ٣٨، تفسير القرطبي ٤/ ٥.

(٢) ذكر سيبويه أربعة أوزان ، وذكر الفيروز أبادي مادة (تفل) في التتفل سبع لغات. انظر: الكتاب لسيبويه ٢/ ٢٧١، القاموس مادة تفل ، المخصص لابن سيده ١٦/ ١١٠.

(٣) انظر لمذهب البصريين : الكتاب لسيبويه ٤/ ٣٣٢-٣٣٣، معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، سر صناعة الإعراب لابن جني ١٤٦، الزاهر لابن الأنباري ١/ ١٦٨.

(٤) انظر: العين للخليل ٦/ ١٢٤، معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٣٩٦، الكشاف للزمخشري ١/ ٣٣٥.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٦) الكشاف للزمخشري ١/ ١٥٧.

الهمزة وهو ليس من أبنية العربية».[١] وهناك أمثلة أخرى.[٢] وأثر تفسير الراغب الأصفهاني أظهر في تفسير الزمخشري منه في تفسير البيضاوي.

ثانياً: الكشاف للزمخشري.

ذهب بعض العلماء إلى أن أساس تفسير البيضاوي هو تفسير الكشاف للزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ) الذي نال كتابه شهرةً كبيرة منذ تأليفه، وقد تميز في باب البلاغة وإبرازها في عبارة مختصرة، وقد نجح في تطبيق نظرية النظم التي قال بها عبدالقاهر الجرجاني وزاد عليه في التطبيق فوائد نفيسة محررة.[٣]

قال السيوطي عنه: « ثم جاءت فرقةٌ أصحابُ نظرٍ في علوم البلاغة التي يُدرَك بها وجهُ الإعجاز، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب ».[٤]

وقد عَدَّ بعضُهم تفسيرَ البيضاوي مختصراً للكشاف، والصواب أنه ليس مختصراً له، وإنما هو أبرز مصادره التي اعتمد عليها، ولذلك قال الخوانساري: «وهو في الحقيقة تهذيب الكشاف وتنقيحه، واختصار ما فيه من دسائس المعتزلة كما قيل ». إلى أن قال: «وقد يقال: إنه كتب تفسيره المعروف على نمط تفسير الكشاف المألوف، فما وجد فيه من خلل في الألفاظ أصلحه، أو من خطل في المعاني صححه، أو من تطويل في العبارة لخصه وخلصه ».[٥]

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٢٤٣.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٧٢٤ (عند تفسير الآية ٩٦ من سورة آل عمران) ووازن بكلام الزمخشري والبيضاوي على الآية نفسها.

(٣) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى.

(٤) نواهد الأبكار للسيوطي ١/ ٣.

(٥) روضات الجنات ٤٥٤.

والواقع كما أنَّ البيضاوي اعتمد اعتماداً كبيراً على تفسير الكشاف لأهميته الكبيرة، ومكانته الرفيعة. ولكن البيضاوي لم يقف عند الكشاف وإنما رجع لكتب التفسير الأخرى، ولكنه أخذ من الكشاف لبابه ومحاسنه وفوائده، وصاغ ذلك بأسلوبه في أحيانٍ كثيرة، واعتمد عليه في بيان الألفاظ والتراكيب وتحليل المباني لاستخراج نكت المعاني وتجنب آراء الزمخشري الاعتزالية بقدر استطاعته لمهارة الزمخشري أحياناً في إخفاء مذهبه.

وقد وقع البيضاوي في متابعة الزمخشري في بعض المواضع كما في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] حيث قال البيضاوي: «إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء. مِنَ الْمَسِّ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله ولذلك قيل: جَنَّ الرجلُ ».[(١)]

وهو نفس كلام الزمخشري حيث قال: « إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ أى المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون. والمس: الجنون. ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنىَّ يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل: معناه ضربته الجنّ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات ».[(٢)]

حيث إنَّ المعتزلة ينكرون قدرة الشيطان على مس الإنسان وصرعه، وقالوا بأن الآية واردة على ما يعتقده العرب ويزعمونه، وهذا خلاف ما عليه أهل السنة.[(٣)]

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٢٣٠.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ١٥٧.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٤.

وأما أثر الكشاف للزمخشري في تفسير البيضاوي فإنه يدركه القارئ بسهولة، حيث يجد التشابه في معظم الكتاب، بل إنه وافقه حتى في مسألة تفرد بها الزمخشري وهي إجازته الاحتجاج بشعر أبي تمام[١] في اللغة، وهو أمر لم يوافقه عليه أحد من المفسرين أو اللغويين.[٢] ، ويظهر تأثره بالكشاف في بداية التفسير، وأما بعد ذلك فقد كان يتصرف أحياناً في كلام الزمخشري بالاختصار، والتهذيب، والإضافة.

وتفسير الزمخشري حوى خلاصة لكتب تقدمته لم يصرح بأسمائها لمخالفتها له في المعتقد، كتفسير (الكشف والبيان) للثعلبي وتفسير الراغب الأصفهاني، وتفسير البسيط للواحدي، والزمخشري لا يصرح باسم أحدٍ ممن ينقل عنهم، ولذلك فإن دراسة مصادر الزمخشري تتطلب بحثاً وتتبعاً دقيقاً.

وقد كان لانتشار تفسير البيضاوي في المدارس وحلقات العلم دورٌ كبير في انتشار تفسير الكشاف للزمخشري، حيث إنه مهم لفهم تفسير البيضاوي، لذلك يستعان على تفسير البيضاوي بالرجوع لتفسير الكشاف للزمخشري وللحواشي التي كتبت على الكشاف، وأوسعها وأجلها حاشية الطيبي التي طبعت مؤخراً باسم (فتوح الغيب).[٣]

وربما كان كلام الزمخشري في الكشاف أسهل من البيضاوي لشدة اختصاره،

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام، شاعر عباسي توفي سنة ٢٣١هـ: انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ١١.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٥٧، الشاهد الشعري في تفسير القرآن للدكتور عبدالرحمن الشهري ١٠٣-١٠٤.

(٣) الطيبي هو العلامة البلاغي المتفنن شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي نسبةً إلى بلدة (الطِّيبِ) الواقعة بين مدينة واسط العراقية والأهواز الإيرانية، المتوفى سنة ٧٤٣هـ، وله حاشيةٌ واسعةٌ على تفسير الكشاف سماها (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب) وقد طُبعت مؤخراً عام ١٤٣٤هـ عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم بالإمارات في ١٧ مجلداً ، وهي من أجود الحواشي التي كتبت على الكشاف . انظر: فتوح الغيب للطيبي ١/ ٩٧.

ولذلك دخل تفسير الكشاف -لاعتماد البيضاوي عليه- إلى المعاهد والبيئات العلمية؛ وأصبحت دراسة البيضاوي دراسةً للكشاف، واتجه الناس إلى التفسيرين معاً في الشروح والحواشي، ولم تبدأ كتابة الشروح على الكشاف إلا في القرن الثامن وما بعده، وصارت البحوث متبادلة بين شروح البيضاوي وشروح الكشاف.[1]

ثالثاً: مفاتيح الغيب المسمى تفسير الرازي.

المصدر الثالث المهم الذي اعتمد عليه البيضاوي هو تفسير الفخر الرازي الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وقد نقل منه ما يتعلق بعلم الكلام وأصول الدين وعلم الهيئة وغير ذلك.

وتفسير الفخر الرازي يحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفيَّاضة الواسعة، في نواح شتَّى من العلم، ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول عنه: «إنه جَمَع فيه كلَّ غريبٍ وغريبة»[2]، وحقاً فإن تفسير الرازي كثير الاستطراد إلى موضوعات متشعبة ليست متصلة بصلب التفسير، وأهم ما يمتاز به تفسير الرازي ذكره المناسبات بين سور القرآن، وآياته وقد انتفع بذلك البيضاوي كثيراً فنقل منه المناسبات في مواضع كثيرة، كما يتوسع في بيان الأحكام الفقهية على مذهب الشافعي، وهو موافق لمذهب البيضاوي في ذلك فانتفع به فيها، كما يتعرض لمذاهب المعتزلة وغيرهم من الطوائف فيرد عليهم، والرازي من كبار أئمة الأشاعرة ومتكلميهم، فنقل منه البيضاوي الكثير من تلك المجادلات والردود مختصراً لها في كثير من المواضع. وأما أهم ما توسع فيه الرازي وانتفع به البيضاوي فيه فباب الفلسفة وعلم الكلام والهيئة والفلك، حيث ملأ

(١) انظر: التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ٩٧-٩٨، الإسعاف في شرح أبيات القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٢٦٥.

الرازي كتابه بالجدل الفلسفي،والنقاشات الكلامية، والكلام عن الأفلاك والنجوم فنقلها البيضاوي منه ولخصها وزاد عليها في بعض المواضع لخبرته في هذه العلوم العقلية. ولذلك قال أبو حيان عن تفسير الرازي: «جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة وطويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير ».[(١)] وإدخال هذه الاستطرادات التي ليست من صلب التفسير لا يناسب منهجية الاختصار التي بنى البيضاوي كتابه عليها، ولكنَّ شدة عنايتهم بتلك العلوم جعلهم يقحمونها في المختصرات.

وتفسير الرازي تأثر بتفسير البسيط للواحدي، ونقل منه في مواضع كثيرة، ولذلك يؤكد هذا أثر تفسير البسيط للواحدي في تفسير البيضاوي إن لم يكن بطريقة مباشرة فبطريقة غير مباشرة.[(٢)]

ومن أمثلة تأثر البيضاوي بتفسير الرازي، ما ذكره الرازي عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الرعد:٢] ، حيث قال الرازي: «اعلم أنَّه تعالى استدلَّ بأحوال السموات، وبأحوال الشمس والقمر، وبأحوال الأرض، وبأحوال النبات. أَمَّا الاستدلالُ بأحوال السموات بغير عَمَدٍ ترونها فالمعنى: أَنَّ هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفةً في الجو العالي، ويستحيل أن يكونَ بقاؤها هناك لأَعيانِها ولذواتها لوجهين: الأول:أَنَّ الأجسامَ متساويةٌ في تمام الماهية، ولو وجب حصولُ جسمٍ في حيزٍ معينٍ لوجبَ حصولُ كلِّ جسمٍ في ذلك الحيز. والثاني:أَنَّ الخلاء لا نهايةَ له، والأحيازَ المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية، وهي بأَسرِها متساويةٌ، ولو وَجَبَ حصولُ جسمٍ في

(١) الرازي مفسراً للدكتور محسن عبدالحميد ٧٨، وهذه العبارة قالها أبو حيان في تفسيره١/ ٥١١ في تفسيره للآية ١٠٦ من سورة البقرة، ونسبها الصفدي في الوافي بالوفيات ٤/ ٢٥٤ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) انظر : البسيط للواحدي (تحقيق د.محمد الفوزان) ١/ ٣٥٠.

حيزٍ معينٍ لوجبَ حصوله في جميع الأحيازِ ضرورة أَنَّ الأحياز بأسرها متشابهةٌ، فثبت أَنَّ حصولَ الأجرامِ الفلكية في أحيازها وجهاتها ليس أمراً واجباً لذاته، بل لا بُدَّ من مخصصٍ ومُرجحٍ، ولا يجوز أن يقال: إنها بقيت بسلسلةٍ فوقها ولا عمد تحتها، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور إلى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية في أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس ».[1]

ونجد البيضاوي يلخص هذا الكلام للرازي فيقول: «وهو دليلٌ على وجودِ الصانعِ الحكيم؛ فإنَّ ارتفاعَها على سائر الأجسام السماوية لها في حقيقة الجرميةِ، واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بُدَّ وأن يكون بمخصصٍ ليس بجسمٍ ولا جسماني، يُرجحُ بعضَ الممكنات على بعضٍ بإرادته وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات».[2]

فالبيضاوي يلخص كلام الرازي لطوله في كثير من المواضع في القضايا الكلامية، والفلسفية، والاستطرادات في علم الهيئة والرياضيات وغيرها، ولذلك عاب بعض العلماء تفسير البيضاوي بذلك، حيث إِنَّه تتبع اعتزاليات الزمخشري واستبعدها بقدر وسعه، ولكنه جاء بدلاً منها بعلم الكلام والفلسفة وهو أشدُّ فساداً من اعتزاليات الزمخشري.

هذه أهم المصادر من كتب التفسير الواسعة التي اعتمد عليها البيضاوي في تصنيف تفسيره، ولا شك أنه قد استفاد من كتب أسباب النزول ككتاب الواحدي، ومن كتب الحديث وغيرها من المصادر العلمية التي كانت تزخر بها

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٢٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٩٦.

مكتبات تبريز في ذلك الوقت . وهو لم يكتف بذلك بل ضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة.

كما أضاف البيضاوي فوق هذه المصادر الكبرى ما فتح الله به عليه من العلم والمعرفة، وما أتقنه من فنون متنوعة خادمة لغرض التفسير دون توسع، بل يكتفي باللمحة الدالة في أحيانٍ كثيرة.

وقد أشار البيضاوي لاستفادته من تلك المصادر المتنوعة في آخر تفسيره، وتلخيصه لفوائدها، حيث قال: « وقد اتفقَ إتمامُ تعليقِ سواد هذا الكتابِ، المنطوي على فرائدِ فوائدِ ذَوي الألباب، المشتملِ على خُلاصةِ أقوالِ أكابرِ الأَئمةِ، وصفوةِ آراءِ أعلامِ الأُمَّة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزاتِ مبانيه، مع الإيجازِ الخالي عن الإخلالِ، والتلخيصِ العاري عن الإضلال، الموسومِ بأَنوارِ التنزيلِ وأسرار التأويل، وأسألُ اللهَ أَن يُتمِّمَ نفعَهُ للطلابِ، ولا يُخلي سعيَ مَنْ يتعبُ فيه من الأجر والثواب ».[1]

ومن يتصدى لتصنيف مثل هذا التفسير فلن يكتفي غالباً بثلاثة مصادر أو أربعة، وإنما سيرجع لعشرات المصادر والمؤلفات التي كانت تزخر بها المكتبات حينذاك.

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٨٨.

الفصل الثاني

أصول التفسير عند البيضاوي

أصولُ التفسيرِ هي الأُسسُ والمُقدِّمات العلمية التي تُعين على فهم التفسير، وما يقع فيه من الاختلاف، وكيفية التعامل معه. ويدور محور هذا العلم على أمرين: كيفَ فُسِّرَ القرآن لكي نفهم صنيع المفسرين في كتبهم، وكيف نُفسِّر القرآن لنسير في التفسير على بصيرة.(١)

وقد رأيتُ أنَّ من خير ما يبني ملكة التفسير لدى الطالب هو التركيز أثناء دراسة كتب التفسير على التطبيق، وإنزال تلك القواعد والأصول التي تُدرَّس في مقررات (علوم القرآن) و(أصول التفسير) على واقع كتب التفسير، ومن أبرز ذلك تتبع المفسر ومدى مراعاته لأصول التفسير التي استقرَّ عَمَلُ المفسرين عليها، حتى يتبين صوابه من خطئه، ويكون الحكمُ على قيمة هذا التفسير أو ذاك مبنيةً على أسس منهجية علميَّة موضوعية.

من هنا جاءت هذه الدراسة لمدى مراعاة البيضاوي في تفسيره لهذه الأصول، أو لأبرزها بحسب هذا البحث الموجز، حتى نضع تفسير البيضاوي في موضعه اللائق به دون غلو أو تفريط، حيث إن بعض من كتب عن هذا التفسير بالغ في مدحه دون أن يقدم أدلةً سوى كثرة عناية العلماء به، والحواشي التي كتبت عليه .

وقد قسمت هذا الفصل إلى خمسة مباحث :

---

(١) انظر: فصول في أصول التفسير للدكتور مساعد الطيار ٢١.

المبحث الأول

عنايته بتفسير القرآن بالقرآن

المقصود بتفسير القرآن بالقرآن هو بيان معاني القرآن بالقرآن.(١) وهو أصلٌ مقدمٌ على غيره عند المفسرين، منذ عهد الصحابةِ الكرام وأتباعهم، وكان النبي ﷺ قد فتح هذا المنهج للصحابة، ثم نهج نهجَهُ الصحابةُ والتابعون وأتباعهم، وعُنِي به بعضُ المفسرين من المتقدِّمين في تفاسيرهم، حتى إذا ظهرت الصناعات العربية في التفاسير، وبدأت تغلب على العناية بهذا الأصل في كتبهم، قلت العناية بتفسير القرآن بالقرآن.

وقد ترسخت أهميَّةُ العناية بتفسير القرآن بالقرآن يوماً بعد يوم في منهجية التفسير، وأصبحت العناية بها مقياساً لجودة التفسير وعلم المفسر.

والبيضاوي ليس بمستوى التفاسير التي أعطت هذا الأصل حقَّه، مثل تفسير ابن كثير، وتفسير أضواء البيان للشنقيطي، فإنَّك تمر بالآيات تلو الآيات التي وردت آيات قرآنيَّة صريحة تفسرها، وتكشف معناها بجلاء ولا تجدُ البيضاوي يوردها في مواضعها، وبموازنةٍ سريعةٍ بين البيضاوي وابن كثير – مثلاً– تكشفُ الفرقَ الكبيرَ بينهما، حيث تجد أن ابن كثير يبدأ بهذا الأصل في تفسير الآية عند وجوده، ثم ينتقل للسنة، ثم اللغة وهكذا في منهجية مطردة، بخلاف البيضاوي الذي سار على خطى الزمخشري في ذلك.

وقد اعتمد البيضاوي هذا المنهج في بيان المبهمات في القرآن، وتفصيل الإجمال، والاستدلال على ما يذهب إليه من وجوه التفاسير، وغير ذلك. وسأورد بعض

(١) انظر: تفسير القرآن بالقرآن للدكتور محسن المطيري ٣٣ ، مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير للدكتور مساعد الطيار ١٢٧.

الأمثلة على ذلك.

فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] حيث ذكر معنيين لغويين لقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦] ، ثم ذكر نظيراً للآية في المعنى الأول من آيات القرآن، واستدل على المعنى الثاني بقراءة حمزة ، وذكر العلاقة بين القراءتين فقال: «وإزلالُه:قولُه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، وقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]، ومقاسمته إياهما بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١] »[(١)]. ثم يستمر في بيان كيفية التوصل إلى إزلالهما.

وفي تفسير العهدين اللذين تضمنهما قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ۚ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] يذكر نوعية المضاف إليه لكلٍّ من العهدين، ثم يفسرهما بما يراه من وجوهِ التفسير، ويسيرُ إلى وجوهٍ أُخرى وردت في تفسيرهما، منها الوجهُ الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما ويُوجِّههُ بحيث يتناسب مع ما ذهب إليه، ومن ثَمَّ يذكرُ قولاً آخر بلفظ:قيل، في نوعية المضاف إليه، وينبِّهُ إلى التغيير الذي لحق بتفسيرِ الآية على هذا القول. ثم يقول: «...وتفصيلُ العهدين في سورة المائدة قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة:١٢]...إلى قوله:﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة:١٢] »[(٢)].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٤] يقول: «أي:نوعاً من المطر عجيباً، وهو مبين بقوله:

(١) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٨٩-٩٠.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٩٤.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤] ».[١]

وبعد تفسيره لقوله تعالى: «﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس:٦٢] قال: «والآية كمجملٍ فسَّرهُ قوله:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٣] وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بيانٌ لتوليهم إياه ».[٢]

وقد يستدلُّ البيضاوي بالقرآن على ما يذهب إليه من وجوه التفسير، أو يذكر الآيات التي تؤيد ذلك. ومن ذلك ما يذكره في تعيين المراد بالحجارةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] حيث يقول: «وهي جمعُ حَجَرٍ، كجِمَالَة جمَعُ جَمَلٍ. وهو قليلٌ غير مُنقَاسٍ. والمراد بها الأصنامُ التي نَحَتوها، وقرنوا بها أنفسهم، وعبَدُوها طَمَعاً في شفاعتِها والانتفاعِ بها، واستدفاعِ المضارِّ بمكانتِها. ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨] ».[٣]

ويذكر البيضاوي أحياناً عدداً من المعاني للآية الواحدة، أو جزءاً منها، ثم يشير إلى آيات أخرى وردت في القرآن بهذه المعاني التي ذكرها. منها أَنَّه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الحجر:٤٥] يذكر وجهين من التفاسير، ثم يذكر عدداً من الآيات فيها ما يفيد الوجه الثاني فيقول: «... في جناتٍ وعيونٍ : لكلِّ واحدٍ جنةٌ وعينٌ، أو لكلِّ عِدَّةٍ منهما كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ثم قوله:﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥] ».[٤]

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٥٥٦.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ١٠٨.

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٦٧.

(٤) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٢٤٢.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل:٨٦] يقول: «...أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء لله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم:٨٢]. ولا يمتنعُ إنطاقُ الله الأصنامَ به حينئذٍ، أو في أَنَّهم حملوهم على الكفر، وألزموهم إياه كقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم:٢٢] ».(١)

وقد يقف البيضاوي أحياناً عند موضوع الآية، ويستعين بآيات أخرى تتحدث في نفس الموضوع لإعطاء صورة مختصرة عن المعنى. ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة:٢١٩] يشير باختصارٍ إلى الآياتِ الأخرى التي نزلت بشأن تحريم الخمر فيقول: « روي أَنَّه نزل بمكة قوله: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾[النحل:٦٧]، فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إِنَّ عمر ومعاذاً في نَفَرٍ من الصحابة قالوا: أَفتنا يا رسول الله في الخمر، فإنها مَذْهَبَةٌ للعقلِ، مَسْلَبَةٌ للمالِ، فنزلت هذه الآية، فشربها قومٌ وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم، فشربوا وسكروا، فأَمَّ أحدُهم فقرأ: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون:٢] فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[النساء:٤٣]، فقلَّ مَنْ يشربها، ثم دعا عتبانُ بنُ مالكٍ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ في نَفَرٍ، فلما سكروا وافتخروا وتناشدوا، فأنشد سعدٌ شِعراً فيه هجاءُ الأنصار فضربه أنصاريٌّ بلِحي بعيرٍ فشجَّه، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه:«اللهمَّ بَيِّن لنا في الخمرَ بياناً شافياً. فنزلت:﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله:

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٥-٢٧٦.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩١]، فقال عمرُ رضي الله عنه: انتهينا يا رب».(١)

وهذا الذي أورده البيضاوي هنا هو خلاصة كلام المفسرين في مسألة التدرج التشريعي في تحريم الخمر كما ورد في القرآن الكريم، وقد أجاد البيضاوي في إيراد هذه الآيات في هذا الموضع؛ حيث إن صورة حكم الخمر لا تكتمل إلا بعرض هذه الآيات في موضع واحد في أول موضع ذكرت فيه هنا.(٢)

وعند تفسير البيضاوي لقوله تعالى في شأن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] يشير البيضاوي إلى أن ما قام به سيدنا إسماعيل كان اشتغالاً بالأهم، وهو أنه كان يأمر أهله بالصلاة، والزكاة – ثم يورد آيات أخرى نزلت بهذا الشأن، فيقول:«...﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] اشتغالاً بالأهمِّ، وهو أن يُقبِلَ الرجلُ على نفسه،ومَن هو أقربُ الناس إليه بالتكميل. قال الله تعالى:﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]،﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[طه:١٣٢]﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم:٦]»(٣).

وهذا حتى يقول للقارئ إن هذا شأن الأنبياء جميعاً حتى نبينا محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم.

وقد يستدعي المقامُ البيضاوي عند تفسيره لبعض الآيات أن يذكر آياتٍ أُخرى يُوهِمُ ظاهرُها التعارُضَ مع الآية التي هو بصدد تفسيرها وبيانها، فيزيلُ هذا التعارض الظاهري، ويوفِّق بينهما.

ومن هذا القبيل ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] حيث يقول في تفسير: ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾:«إلاَّ واصلُها

(١) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ١٨٨.

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ١/ ١٤٢، التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢١٤.

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٠-٣٧١.

وحاضرٌ دونَها، يَمرُّ بها المؤمنون وهي خامدةٌ، وتنهار بغيرهم. وعن جابرٍ أنه عليه السلام سُئِلَ عنه فقال:إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنة، قال بعضُهم لبعضٍ: أليس قد وعَدَنا ربُّنا أَن نَرِدَ النار؟ فيُقال لهم:قد وردتموها وهي خامدةٌ. وأما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] فالمراد:عن عذابها. وقيل: ورودُها الجوازُ على الصراط، فإنَّه ممدودٌ عليها... ».[١]

وهو هنا ضعَّف قول الجمهور الذي تؤيده الأحاديث الصحيحة، ورجح قولاً يقاربه ولكنه غير مشهور. والصحيح في معنى الورود أنه المرور على الصراط فوق جهنم، لدلالة الأحاديث.[٢]

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٥-٣٧٦. قال الإمام الطبري: «حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله: قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلّم سَلّم». قال ابن كثير تعقيباً على هذا الحديث: «ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم من الصحابة ﷺ». انظر: تفسير الطبري ، تفسير ابن كثير .

المبحث الثاني : عنايته بتفسير القرآن بالسنة

تفسير القرآن بالسنة النبوية مفهومه واسع، حيث يشمل تفسير النبيﷺ للقرآن بنفسه، وهو المسمى بالتفسير النبوي، وتشمل اجتهاد مَنْ بَعد النبي ﷺ في تفسير آيةٍ قرآنيةٍ بحديثٍ نبوي.(١)

وتفسير البيضاوي ليس من كتب التفسير بالمأثور التي أولت هذا اللون من التفسير عنايتها، بَيْدَ أَنَّه لم يخلُ من الانتفاع بالأحاديث النبوية في تفسيره، وقد زادت الأحاديث والآثار في تفسيره عن ألف وأربعمائة حديثٍ وأثر، يستدلُّ بها على قضايا تفسيرية مختلفة، غير أَنَّ طريقة عرضه للنصوص الحديثية تختلف من مكان إلى مكان، فقد يذكر الحديث بأكمله، وقد يقتصر على موضع الشاهد منه، وأحياناً يفسر الكلمة من الآية ثم يشير إلى أنَّ هذا التفسير روي مرفوعاً من غير أن يذكر نص المروي.(٢)

ومن أمثلة استعانته بالحديث النبوي في التفسير تفسيره للظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] حيث قال: «... والمرادُ بالظلم هنا الشرك؛ لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة، وقالوا: أَيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ليس ما تظنون، إِنَّما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣] ».(٣)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات:١٢] يقول: «ولا يَذْكُرْ بعضُكم بعضاً بالسوءِ في غَيبته. وسُئل – عليه الصلاة والسلام – عن الغِيبة؟

(١) انظر : التفسير النبوي للقرآن للدكتور خالد الباتلي ١/ ٣٠.
(٢) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ١٣٦.
(٣) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٥٠١.

فقال: « **أن تذكرَ أخاك بما يَكرهه، فإنْ كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهته**».(١)

وأحياناً يكتفي بالإشارة إلى أَنَّ المعنى مرفوعٌ إلى النبي ﷺ دون إيراد لفظ الحديث، مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢] حيث قال في بيان ماهية الكنز: «مِن ذهبٍ وفضةٍ وروي مرفوعاً».(٢)

وعند قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] فَسَّرَ ﴿سَرِيًّا﴾ فقال: «سَرياً: جَدولاً، هكذا رُوي مرفوعاً».(٣)

والبيضاوي قد يُفسِّر الآية بما يراه من وجوه التفسير بناء على مقتضى اللغة، ثم يذكر ما أُثر من الحديث في تفسيرها، وربما يكون مضمون الحديث غير مطابقٍ لما ذهب إليه. غير أنه قد يتعقبه بالإشارة إلى التغيير الذي حصل في المعنى بسببه، أو أنه يترك للقارئ الوصول إلى ذلك بنفسه. ويأتي من هذا القبيل ما يذهب إليه أحياناً من إبقاء الألفاظ على عمومها، وعدم حصرها بما روي من المأثور أو غيره؛ لأنه لا يرى فيما روي تخصيصاً بالمعاني المذكورة، وإنما ينظر إليه على أنه على طريق التفسير بالمثال أو غير ذلك.

وهذا الذي يجعله أحياناً يورد بعض التفاسير المأثورة بصيغة التمريض، وهذا غير مقبول، ومن الأمثلة على ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، قال: «والضلال:العدولُ عن الطريق السويِّ عمداً أو خطأً، وله عرضٌ عريضٌ، والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير. قيل: المغضوب عليهم:

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٣/ ٣٠٨ والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٠١.
(٢) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٣٥١ والحديث أخرجه الترمذي ٥/ ٣١٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٩.
(٣) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٣٦٥ والحديث أخرجه ابن جرير الطبري ١٦/ ٦٩، والحاكم ٢/ ٣٧٣.

اليهود؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٦٠]، والضالين النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [المائدة:٧٧]، وقد روي مرفوعاً.(١)

ويتجه أن يقال: المغضوب عليه:العصاة. والضالين: الجاهلون بالله؛ لأن المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيه العاقلة والعاملة، والمخل بالعمل فاسقٌ مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣]، والمخلُّ بالعلم جاهلٌ ضالٌ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢] ».(٢) وكان يجب هنا إيراد الحديث الصحيح في تفسير الآية، وهو نص في معنى الآية، والواجب ألا يصار إلى غيره.(٣) فقد ورد في الحديث أن: « **المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى**».(٤)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] قال في بيان المراد بالقوة: «مِنْ كُلِّ ما يُتقوَّى به في الحرب. وعن عُقبةَ بن عامرٍ(٥): سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «**أَلا إنَّ القوَّةَ الرمي**» (٦)، قالها ثلاثاً.

(١) انظر : سنن الترمذي ٥/ ٢٠٤، حاشية السيالكوتي على البيضاوي ٨٧.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٢٠-٢١.

(٣) انظر : قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور حسين الحربي ١/ ١٩١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٩٠١٧ من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وصحيح ابن حبان برقم ٦١٣٧.

(٥) هو الصحابي الجليل عقبة بن عامر الأنصاري السلمي البدري ، شهد العقبة الأولى، وقتل شهيداً في اليمامة . انظر: تجريد أسماء الصحابة للذهبي ١/ ٣٨٤ رقم ٤١٤٨.

(٦) أخرجه مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ٦٤)، سنن الترمذي بشرح عارضة الأحوذي ١١/ ٢١٣.

ولعلَّه عليه الصلاة والسلام خَصَّه بالذكر لأنَّه أقواه».[1] وهذا جيد من البيضاوي عندما اقتصر على الحديث في بيان معنى الآية ثم وجه المراد به.

ويذكر البيضاوي أحياناً نظير الآية من الحديث، أو ما يوهم معارضتها من حيث الظاهر، ويزيل هذا التعارض. ومن ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:٥١] يفسر الآية ويربط بينها وبين الآيات التي قبلها ربطاً موضوعياً، ثم يذكر لها نظيراً من الحديث فيقول: «ثم شرع في الدعوة، وأشار إليها بالقول المجمل فقال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ إشارةً إلى استكمالِ القوة النظريَّةِ بالاعتقاد والحق الذي غايته التوحيد ، وقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارةً إلى استكمال القوة العمليَّةِ، فإنَّه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة. ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**قلْ آمنتُ بالله ثم استقم**».[2]

وربما ذكر في تفسيره معاني أحاديث دون الإشارة إلى أنها أحاديث، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] » حيث قال: «لينظفكم أو ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء... ».[3]

فقوله : «فإنَّ الوضوءَ تكفيرٌ للذنوب» إشارةٌ إلى حديثٍ رواه مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«**مَنْ توضأَ فأحسنَ الوضوءَ خرجت خطاياهُ من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**».[4]

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨.

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٢٦٣ ، والحديث أخرجه مسلم ١/ ٦٥.

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ١/ ٤٢٢.

(٤) رواه مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٣٣).

كما يتوسع في بيان القصص الموجزة في القرآن بالأحاديث النبوية، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] حيث أورد الرواية المأثورة في ذلك مختصرةً.(١)

وقد أورد البيضاوي أحاديث ضعيفة وموضوعة في فضل بعض الآيات والسور، نقلها من الكشاف للزمخشري، وقد ذمه العلماء لذلك.(٢)

وأما الدراسة النقدية للأحاديث في تفسير البيضاوي فلا نكاد نجدها، سوى أمثلة زهيدة ونادرة في بعض المواضع.

كقوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات:١٠٢] حيث فسَّر الآية بأن المقصود بالذبح هنا هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم يستدل بحديث وينتقد ما روي خلاف ذلك بأنه لم يثبت، وأنه من زوائد الراوي، فيقول بعد تفسيره للآية: «والأظهرُ أَنَّ المخاطب به إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه الذي وُهِبَ له إثر الهجرة، ولأَنَّ البشارة بإسحاق بعدُ معطوفةٌ على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا ابنُ الذَّبيحين**» فأحدهما جده إسماعيل، والآخر أبوه عبدالله، فإن جده عبدالمطلب نذر أن يذبح ولداً إن سَهَّلَ الله له حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة. فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبدالله. ففداه بمئة من الإبل. ولذلك سُنَّت الدية مئة؛ ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبشين معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة، ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ: أَيُّ النَّسبِ أشرفُ؟ فقال : «**يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن**

(١) انظر : تفسير البيضاوي ٣/ ٥١٨ ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٩٩.

(٢) انظر : التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٣٣٣.

إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله».[1]

فالصحيح أَنَّهُ قال يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. والزوائد من الراوي، وما روي أَنَّ يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت».[2]

وأما قول البيضاوي: «فالصحيح أَنَّهُ قال يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. والزوائد من الراوي، وما روي أَنَّ يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت» فقد وافق رأي أهل الحديث.[3]

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ١٨٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ١٥٥. وهذا الحديث قد أخرجه الطبراني من طريق بقية بن الوليد عن شعبة عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه ﷺ عن النبيﷺأنه سئل: من أكرم الناس؟ قال : «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله» [المعجم الكبير للطبراني ١٠/ ١٨٤ حديث ١٠٢٨٧]. وقال الهيثمي : «وبقية مدلس وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه»[مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٢٠٢]. وقال الألباني: «لكن بقية قد توبع عليه، فقد رواه ابن المظفر في غرائب شعبة ١/ ١٣٨ عن معاوية بن حفص وبقية معاً عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود به. ثم قال :«ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وهو الصواب، أخرجه الطبراني ٩/ ٢٠٨/ ٨٩١٦، وقال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٨ : «وهذا صحيح عن ابن مسعود.[سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم ٣٣٤.] وأما حديث: «من أكرم الناس ... الخ» فقد صح بدون قوله:«ذبيح الله»، حيث أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة. [صحيح البخاري ، أحاديث الأنبياء ، باب (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) ح ٣٣٧٤ (٦/ ٤١٤٣)، وباب (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) ح ٣٣٨٣ (٦/ ٤١٧)، وكتاب التفسير ، سورة يوسف : باب (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) ح ٤٦٨٩ (٨/ ٣٦٢) من طريق عبيدالله العمري عن سعيد المقبري به. وأخرجه مسلم في الفضائل باب فضائل يوسف عليه السلام ح ١٦٨ (٤/ ١٨٤٦)].

(٣) قال الحافظ ابن حجر تعليقاً عليه : «أخرجه الدارقطني في غرائب مالك في سياق طويل فيه «كتب يعقوب إلى عزيز مصر : بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ... الحديث» وقال الدارقطني: «هذا موضوع باطل، وإسحاق بن وهب كان يضع الحديث على ابن وهب». انظر: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر العسقلاني بحاشية الكشاف ٣/ ٣٥٢.

المبحث الثالث: تفسير السلف في تفسير البيضاوي

المقصودُ بالسَّلَفِ هم علماءُ الطبقات الثلاث الأولى في الإسلام: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين. وما بعدهم من الطبقات لا يعتبرون من السلف بالمفهوم الاصطلاحي.

قال ابن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ): «واتفقوا أنَّ آخرَ مَن كان من أتباع التابعين ممن يُقبلُ قوله مَن عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البِدَعُ ظُهُوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلةُ أَلسنتَها، ورفعت الفلاسفةُ رؤوسَها، وامتُحِن أهلُ العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوالُ تغيراً شديداً، ولم يزلِ الأمرُ في نقصٍ إلى الآن».(١)

وقد نصَّ البيضاويُّ في مقدمة تفسيره على عنايته بتفسير هذه الطبقات فقال: «ولطالما أحدثُ نفسي بأَنْ أُصنِّفَ في هذا الفنِّ كتاباً يحتوي على صفوةِ ما بلغني من عظماء الصحابةِ، وعلماءِ التابعين، ومَنْ دُونَهم من السلف الصالحين».(٢)

وقد وفى البيضاوي بشرطه إلى حدٍّ ما، حيث استعان بتفسير السلف في كتابه بطُرُقٍ مختلفةٍ، فربما صرَّح بذكر اسم المفسر من الصحابة أو التابعين أو أتباعهم، وربما نقلَ تفسيره دون النص على اسمه طلباً للاختصار، غير أنَّ الذي يراجع كتب التفسير التي تعتني بتفسير السلف يجد أن البيضاوي لا يكاد يخرج عنها.

ولذلك فإنَّه من الخطأ نفيُ صفةِ العناية بتفسير السلف عن تفسير البيضاوي وأمثاله لمُجرَّدِ عدم التنصيص على أسماء المفسرين من السلف، وإنَّما ينبغي الرجوع لتفاسير السلف وموازنتها بما نقله في تفسير الآية، فإن وجده يقول بقولهم دون

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧/ ٦ .

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٦.

النص على أسمائهم فهذا يُعذَر لمنهجه في الاختصار، وإنْ خرج عن أقوالهم مخالفةً لهم، ورغبةً عنهم فهذا الذي يؤاخذ، والبيضاوي لم يسلم من ذلك في بعض المواضع.

وقد أولى البيضاوي عنايةً خاصةً لتفسير الصحابي الجليل عبدالله بن العباس ﷺ، فنقل تفسيره في مواضع كثيرة، وربما اكتفي بالإشارة إلى تفسيره من غير تعقيب عليه، وقد يناقشه.(١)

ومن ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤] قال البيضاوي: «هم مؤمنو أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام – رضي الله عنه – وأضرابه. معطوفون على ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصين تحت أعم؛ إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك، وإنكار، وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين، وهو قولُ ابنِ عباس ﷺ».(٢)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، يقول بعد بيان معنى الآية: «عن ابن عباس: حَشرُها: موتُها».(٣)

وفي أسباب النزول ينقل عن ابن عباس كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥] فيقول: «عن ابن عباس ﷺ: أَنَّ عمروَ بنَ الجموح الأنصاري كان شيخاً هِمَّاً(٤) ذا مالٍ عظيمٍ،

(١) قام عدد من الباحثين بجمع تفسير ابن عباس مثل د. أحمد العمراني في (موسوعة مدرسة مكة في التفسير)، والدكتور عبدالعزيز الحميدي في كتابه مرويات ابن عباس في التفسير وغيرهما.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٦.

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٤٨٨.

(٤) الهِمُّ بالكسر الشيخ الفاني، والمرأة هِمّة. انظر: لسان العرب ٦/ ٥٢١.

فقال: يا رسول الله ماذا نُنفقُ من أموالنا وأين نضعُها؟ فنزَلَت».(١)

وفي تفسيره لآيات الأحكام ينقل أقوال ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[البقرة: ٢٣٤] ، حيث قال بعد تفسيرها: «وعن عليٍّ وابن عباسٍ: أَنَّها تعتَدُّ بأقصى الأَجَلَين احتياطاً».(٢)

وفي تاريخ نزول الآيات ينقل عنهُ أيضاً في بعض المواضع من تفسيره ومن ذلك ما يقوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١] حيث قال: «عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّها آخرُ آيةٍ نزلَ بها جبريلُ، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة».(٣)

ويتوقف البيضاوي أحياناً عند تفسيرات ابن عباس رضي الله عنهما مُبيناً رأيه فيها ويناقشها، وقد يضعِّفُها أو يوجّهها توجيهاً يتلاءم مع ما ذهب إليه. ومن ذلك ما قاله عند تفسيره لقوله تعالى: «﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ [يوسف:١١٠] حيث يقول بعد تفسيرها: «وما رُوي عن ابن عباس أَنَّ الرسلَ ظنوا أَنَّهم أُخلِفُوا ما وَعَدهم اللهُ من النصر- إِنْ صحَّ- فقد أرادَ بالظنِّ ما يَهجُسُ في القلب على طريقةِ الوسوسة».(٤)

كما ينقل البيضاوي أقوال بقية المفسرين من الصحابة كالخلفاء الراشدين وعبدالله بن مسعود وأبيِّ بن كعبٍ وعمرو بن العاص وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، ويقف مع أقوالهم أحياناً كما وقف مع بعض أقوال ابن عباس، حيث يبين وجهة نظره العلمية، وتوجيهه في بعض المسائل الاجتهادية.

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ١٨٥.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٢٠٣.

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٢٣٣.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٩٤.

من ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠] قال بعد تفسير الآية: «وما رُوي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامةِ من الثباتِ على الإيمانِ، وإخلاصِ العملِ، وأَداءِ الفرائض فجزئياتُها».(١)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] يقول: «بالبَخْعِ كما يفعلهُ جَهَلَةُ الهندِ، أو بإلقاءِ النَّفسِ إلى التهلكة. ويؤيده ما روي أنَّ عمرو بن العاص تأَوَّلَهُ في التيمم لخوفِ البَرْدِ فلم يُنْكِر عليه النبيُّ ﷺ».(٢)

عنايته بأسباب النزول:

ومن أهم صور العناية بالآثار في تفسير البيضاوي إيراد أسباب النزول، حيث إنه يستفيد منها في توضيح قصة الآية أو الحادثة التي نزلت بشأنها الآية، وهي طريق قوي في فهم معاني القرآن. ولذلك قال الواحدي: « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها »(٣)، ويقول ابن تيمية: « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ».(٤)

ومن هنا فقد عني البيضاوي بأسباب النزول المروية، وربما اعتمد على كتاب أسباب النزول للإمام الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، حيث إنهما عاشا في بيئة متقاربة في بلاد فارس، وكان لمؤلفات الواحدي أثرٌ كبيرٌ على من جاء بعده في تلك البيئة العلمية، كالزمخشري والبيضاوي وغيرهم كما تقدم.

والبيضاوي يعبر عن النزول بصيغ عديدة، فقد يعبر بعبارات صريحة مثل: سبب نزول الآية كذا، أو روي كذا فنزلت، أو حدث كذا فنزلت، أو تكون غير

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٢٥.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) أسباب النزول للواحدي ٩٦.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ٣٨، فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٩.

صريحة مثل : نزلت الآية في كذا، أو نزولها في كذا. وغالباً ما يختصرها ويذكر مضامينها بعباراته، من غير ذكر للراوي، وأحياناً يذكر الراوي الذي روي سبب النزول عن طريقه، وصيغ العبارات غير مؤثرة في صنيع المفسرين، والعبرة في اختلاف الصيغ بروايات الصحابة والتابعين.

ومن الأمثلة على ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] قال في سبب النزول: «كان إسافُ على الصفا، ونائلةُ على المروة، وكان أهلُ الجاهليةِ إذا سعوا مسحوهما. فلمَّا جاء الإسلامُ، وكُسرت الأصنامُ تحرَّج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت ».[(١)]

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء:١٢٧] قال: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ في ميراثهن؛ إذ سبب نزوله أن عيينة بن حصن[(٢)] أتى النبي ﷺ فقال: «أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنا كنا نورث من يشهد القتال، ويحوز الغنيمة، فقال عليه الصلاة والسلام : «**بذلك أمرت** ».[(٣)]

وقد يورد أحياناً عدة أسباب للنزول، دون ترجيح لأحدها. فمن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨]، قال في سبب

(١) تفسير البيضاوي ١/ ١٥٢ ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (٢/ ٩٢٨) برقم ١٢٧٧ ، وانظر : المحرر في أسباب النزول للدكتور خالد المزيني ١/ ٢٣١.

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري من المؤلفة قلوبهم ، شهد حنيناً والطائف. انظر: تجريد أسماء الصحابة للذهبي ١/ ٤٣٢ برقم ٤٦٧٥ .

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٣٩٦ والحديث أخرجه الحاكم ٢/ ٣٠٨، الفتح السماوي للمناوي ١/ ٢٥١.

نزولها: « روي أَنَّه عليه السلام سألَ اليهودَ عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها، وأَرَوه أَنَّهم قد صدقوه، وفرحوا بما فعلوا، فنَزَلت. وقيل : نزلت في قومٍ تخلَّفوا عن الغزو، ثم اعتذروا بأَنَّهم رأوا المصلحةَ في التخلُّفِ، واستحمدوا به، وقيل: نزلت في المنافقين؛ فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة ».[1]

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٣٦] قال: «نزلت في المطعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عَشرَ جُزُر. أو في أبي سُفيان استأجرَ ليومِ أُحُدٍ ألفين من العرب سوى مَنْ استجاش من العرب، وأنفقَ عليهم أربعين أوقيَّة، أو في أصحاب العيرِ؛ فإنه لما أصيبت قريشٌ ببدر، قيل لهم: أعينوا بهذا على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا... ».[2]

ويقف البيضاوي أحياناً عند السبب ويناقشه، ويتعرَّض للملابسات التي تحف به من خلال الآية نفسها، فلا يطمئن إليه، بل يشير إلى رده، ومن ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف:١٧]، يقول في بيان المراد من ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾: « والمرادُ به الجنس. وإِن صحَّ نزولها في عبدالرحمن بن أبي بكر ﷺ قبل إسلامهِ فإِنَّ خصوصَ السببِ لا يُوجب التخصيصَ... »[3] ثم يفسر الآيــة التي تليها وهي قوله تعالى:

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٣٢١ ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٤/ ٢١٤٣ برقم ٢٧٧٨، وأحمد في مسنده ٤/ ٤٤٤ برقم ٢٧١٢ ، وانظر : المحرر في أسباب النزول للدكتور خالد المزيني ١/ ٣٤٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٩-٢٠.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٧٨.

«﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ويقول في تفسيرها : «...﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بأَنَّهم أهلُ النار. وهو يرُدُّ النزولَ في عبدالرحمن؛ لأنَّه يدلُّ على أَنَّهُ مِن أهلها لذلك، وقد جَبَّ عنهُ – إن كان – إسلامُه).[١] قال ابن كثير: « وهذا عامٌّ في كلِّ مَنْ قال هذا، ومَنْ زعمَ أَنَّها نَزَلَتْ في عبدالرحمنِ بنِ أَبِي بكرٍ فقوله ضَعيفٌ؛ لأَنَّ عبد الرحمن بن أَبِي بكْرٍ أَسْلَمَ بعدَ ذلك وحَسُنَ إسلَامُهُ، وكان منْ خيار أَهْلِ زمانهِ».[٢]

ومن أهم القواعد المتعلقة بأسباب النزول قاعدة:«هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب »[٣]، وقد أدرك البيضاويُّ أهمية هذه القاعدة، ولذلك فهو يؤكِّد في مواضع كثيرة أثناء إيراده لسببِ النزولِ على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر:٥٦]: «عامٌ في كل مجادلٍ مبطلٍ، وإن نزلت في مشركي مكة، أو اليهود حين قالوا: لست صاحبنا، بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر، ويسير معه الأنهار... ».[٤]

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [محمد:٣٤] قال: « عامٌ في كلِّ مَنْ ماتَ على كفره، وإِنْ صحَّ نزولُه في أصحاب القليب ».[٥]

ويجعل أحياناً خصوصية الحكم بالسبب تخريجاً من تخريجات الآية، ومن ذلك

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨٣.

(٣) انظر : فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٦٤، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٨٦، القواعد الحسان المتعلقة بالقرآن للسعدي ١٨ .

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٢١٣.

(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٩١.

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣] قال: «... ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ إذ الغالبُ أنَّ المائلَ إلى الزنى لا يرغبُ في نِكاح الصوالح، والمسافحةَ لا يرغبُ فيها الصلحاءُ؛ فإنَّ المشاكلةَ عِلةٌ للألفة والتضام، والمخالفةَ سببٌ للنُّفرةِ والافتراق، فكان حقُّ المقابلة أن يقال: والزانيةُ لا تُنكحُ إلا مِن زانٍ أو مشرك، لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهنَّ؛ لأن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هَمُّوا أن يتزوجوا بغايا يُكرينَ أنفسهنَّ لينفقن عليهم من أكسابهنَّ على عادة الجاهلية.

ولذلك قدَّم الزاني ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنَّه تشبُّهٌ بالفُسَّاقِ وتعرُّضٌ للتهمة، وتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد. ولذلك عَبَّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل:النفي بمعنى النهي وقد قُرئ به. والحُرمة على ظاهرها، والحكم مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه، أو منسوخٌ بقوله: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [النور:٣٢] فإنَّه يتناول المسافحات، ويؤيده أنه عليه السلام سُئل عن ذلك فقال: « **أَوَّلُه سِفاحٌ، وآخره نكاحٌ، والحرام لا يُحرِّم الحلال**... ».[1] وهذا خلطٌ من البيضاوي، حيث ساق حديثين مساقاً واحداً، أحدهما موقوف على ابن عباس، والآخر مرفوعٌ وفيه ضعف كما ذكر ذلك علماء الحديث[2]، وهو إشارةٌ إلى قلة بضاعة البيضاوي في الحديث.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٨٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٤/ ٢٦٨، وابن حبان في المجروحين ٢/ ٩٨ في ترجمة عثمان بن عبدالرحمن الوقاصي. وهما حديثان ساقهما البيضاوي مساقاً واحداً، أولهما قوله «**أوله سفاح وآخره نكاح**» موقوف على ابن عباس، والآخر قوله: «**الحرام لا يحرم الحلال**» مرفوع من حديث عائشة، وقد أخرجه البيهقي في سننه في باب النكاح ٧/ ١٦٩، وفي إسناده عبدالله العمري وهو ضعيف. انظر: الفتح السماوي في تخرج أحاديث تفسير البيضاوي للمناوي ٢/ ٨٦٤.

تعامله مع الإسرائيليات:

وأما الروايات الإسرائيلية فقد تجنبها البيضاوي إلى حدٍ بعيد، فلا تكاد تجد في تفسيره روايات إسرائيلية إلا نادراً، أوردها في تفصيل بعض القصص القرآني، كما في تفسيره لقصة سليمان عليه الصلاة والسلام مع بلقيس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥]، حيث ساق رواية في وصف ذلك الوفد الذي حمل الهدايا إليه، مصدراً إياها بعبارة تدل على التمريض.[(١)]

ومثل ذلك ما أورده في وصف المائدة التي نزلت على عيسى عليه السلام وقومه[(٢)]، وقصة سليمان عليه السلام وتمثل الشيطان بصورته[(٣)] وغير ذلك من الآثار الإسرائيلية التي ذمَّهُ بسببِ إيرادها كثير من العلماء بعده.

ومما يمكن الإشارة إليه تلك الأحاديث الموضوعة التي أوردها البيضاوي في بيان فضائل السور في آخر كل سورة، وهي في أصلها حديثٌ واحدٌ موضوعٌ، وضعه[(٤)] أبو عصمة نوح بن أبي مريم[(٥)]، وهي مأخوذة من تفسير الكشاف للزمخشري، وقد أوردها في آخر كل سورة كما فعل الزمخشري.

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٥٦٦ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٥.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٣/ ١٧٥.

(٤) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ١٠٠ -١٠١، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي ١٣٢ وما بعدها.

(٥) هو نوح بن أبى مريم يزيد بن عبدالله، أبو عصمة المروزى، عالم أهل مرو، وهو نوح الجامع، لانه أخذ الفقه عن أبى حنيفة وابن أبى ليلى، والحديث عن حجاج بن أرطاة، والتفسير عن الكلبى ومقاتل، والمغازى عن ابن إسحاق، وروى عن الزهري، وابن المنكدر.ولى قضاء مرو في خلافة المنصور، وامتدت حياته. قال مسلم وغيره: متروك الحديث. وقال الحاكم: وضع أبو عصمة حديث فضائل القرآن الطويل، توفي سنة ١٧٣هـ انظر: ميزان الاعتذال للذهبي ٤/ ٢٨٠.

أقوال التابعين :

وينقل البيضاوي أقوال المفسرين من التابعين من أمثال أبي العالية رُفيع بن مهران الرياحي(ت٩٠هـ)، وسعيد بن جبير(ت٩٥هـ)، ومجاهد بن جبر (ت١٠٤هـ) ، والضحاك بن مزاحم الهلالي(ت١٠٥هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي(ت١١٨هـ) وغيرهم. غير أن ذلك قليل جداً، وهو إذا أوردها لا يتقيَّدُ بأقوالهم، بل قد يُضعِفُها، ويردُّ عليها، أو يوجهها توجيهاً مناسباً كما مرَّ في تفسير الصحابة.(١)

ومن ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] يردُّ على ما ذهب إليه مجاهدُ والضحاكُ مِنْ أنَّ التعليقَ في الآية لاشتراط السفر فيقول: «الذي يُستوثق به رِهانٌ، أو فعليكم رهانٌ، أو فليؤخذ رهان، وليس هذا التعليق في الآية لاشتراط السفر في الارتهان كما ظنه مجاهد والضحاك رحمهما الله لأنه عليه السلام رهن درعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعاً من شعيرٍ أخذه لأهله، بل لإقامة التوثيق بالارتهان، مقام التوثيق بالكتبة في السفر الذي هو مظنة إعوازها».(٢)

وأحياناً يورد قولاً للتابعين ثم لا يُعقِّب عليه بشيءٍ كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] حيث يورد قول مجاهد فيقول: «وقال مجاهد: ما مُسِخَتْ صُورُهم، ولكن قلوبُهم، فمُثِّلُوا بالقِرَدةِ كما مُثِّلوا بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]».(٣)

وأما طبقة أتباع التابعين فينقل عن بعضهم أحياناً كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾

(١) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ١٤٢.
(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ١٠٨.

[إبراهيم:٣٥] ، فقد أورد تفسير الإمام سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ)[١] فيقول: « وزعم ابنُ عيينة أَنَّ أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يَعبُدوا الصنمَ، مُحتجاً به، وإِنَّما كانت حجارةٌ يَدورونَ بها، ويسمُّونها الدوار، ويقولونَ: البيتُ حَجَرٌ، فحيثما نصبنا حَجَراً فهو بمنزلته ».[٢]

ويورد البيضاوي أقوالاً غير مسندة بصيغة التمريض كقيل وروي ونحوها، وهذا كثير في تفسيره، وعند المراجعة تجدها لأحد مفسري السلف.

وتفسير البيضاوي قائمٌ على الإيجاز، وعدم التوسع، ولكنه لجأ إلى الاختيار والترجيح بين أقاويل المفسرين المختلفة التي ترد في معاني الآيات، والتي يتعذر القول بها جميعاً، أو الجمع بينها.

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي إمام كبير أدرك عدداً من التابعين فأخذ عنهم وأخذ عنه وتتلمذ عليه كبار العلماء كالأعمش وشعبة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما، مات بمكة سنة ١٩٨هـ . انظر: الحلية لأبي نعيم ٧/ ٢٧٠، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ٢٤٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٢٦.

المبحث الرابع : القراءات في تفسير البيضاوي

عُنِي البيضاوي في تفسيره بالقراءات ونص في مقدمة تفسيره على أنه سوف يذكر القراءات الثمان فقال: «ولطالما أُحدِّثُ نفسي بأَن أُصنِّفَ في هذا الفنِّ كتاباً يحتوي على صفوةِ ما بَلغني من عُظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكتٍ بارعة ولطائف رائعة استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المَعزِيَّةِ[1] إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين ».[2]

والأئمة الثمانية المشهورون من القراء هم السبعة[3] الذين اختارهم ابن مجاهد إضافةً إلى يعقوب الحضرمي البصري، كما يورد كثيراً القراءات الشاذة التي فقدت أحد شروط القراءة المشهورة[4]، وهو يوظفها في بيان المعاني.

ولم أجد مَنْ تعرَّض من الباحثين للقراءة التي اعتمدها البيضاوي في تفسيره فتتبعته فوجدته في بداية كل سورة يورد عددَ آياتها، وهذا مما يُقرِّب المراد، فوجدته يذكر العَدَّ على مختلف مذاهب أهل العدد، وأكثر ما رأيته يذكرُ العددَ الكوفيَّ ويقتصر عليه، كما في سورة النساء، والمائدة، والأنعام، والأنفال، وهود، والرعد، وإبراهيم، والأنبياء، والحج، وغيرها.

---

(١) المعزِيَّة مِن عَزيته، يقال: عَزُوتُه إلى أبيه وعَزيتُه.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٦.

(٣) هم ابن عامر الشامي، وابن كثير المكي، وعاصم الكوفي، وأبو عمرو البصري، وحمزة الكوفي، ونافع المدني، والكسائي.

(٤) جمع الباحث محمد غياث القراءات الشاذة التي أوردها البيضاوي في كتاب مع توثيقها ونسبتها وتوجيهها، وقد توصل إلى أن البيضاوي أورد القراءات الشاذة عن واحدٍ وثلاثين من الصحابة والتابعين وأتباعهم ممن اشتغل بالإقراء ونقل القراءات. انظر: القراءات الشاذة وتوجيهها في تفسير القاضي البيضاوي ص ٢٩-٣١.

ويقتصر أحياناً أقل على ذكر مذهب أهل البصرة في العدد كما في سورة البقرة، والكهف، والسجدة.

ويذكر المذهبين أحياناً كما في قوله في سورة المؤمنون: « مكية وهي تسع عشرة آية عند البصريين، وثماني عشرة عند الكوفيين ».(١)

فغلب على ظني بعد ذلك أَنَّه يفسر القرآن على قراءة أحد قراء الكوفة الثلاثة، ولكنني لم أميزه من بينهم. فتتبعت كلام البيضاوي على مفردات القراء الثلاثة الكوفيين وهم حمزة وعاصم والكسائي، فغلب على ظني أَنَّه يفسر على قراءة حمزة الزيات الكوفي خصوصاً.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٧٨]، انفرد حمزة الكوفي بقراءة ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ خطاباً للنبي ﷺ ، والبقيَّة بالياء.(٢) ووجدتُ البيضاويَّ يقول في تفسيرها: «خِطابٌ للرسولِ عليه السلام، أو لكلِّ مَن يَحسب ».(٣) غير أني وجدته يتابع الزمخشري في تلحين قراءة حمزة في قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء:١] فاستبعدت أن يفسر القرآن على قراءة يرى أن فيها لحناً.(٤)

والموضوع في حاجة إلى مزيد من التتبع للتأكد من القراءة التي اعتمدها البيضاوي في تفسيره، حيث إن نص القرآن المطبوع مع تفسير البيضاوي في كل

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٦٢.

(٢) انظر : معجم القراءات للخطيب ١/ ٦٢٧.

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٣١٥.

(٤) صنف الملا علي قارئ كتاباً في تخريج قراءات تفسير البيضاوي سماه (الفيض السماوي في تخريج قراءات البيضاوي)، وهو يحقق في جامعة أم القرى، وقد قرأته فوجدته لم يتعرض للقراءة التي اعتمدها البيضاوي، وإنما تتبع القراءات في تفسيره وقام بنسبتها للقراء بها. ولعل البيضاوي لم يعتمد قراءة بعينها لتكون أصلاً للتفسير والله أعلم.

طبعاته هو برواية حفص بن سليمان الكوفي، وهو لم يفسر القرآن على رواية حفص، وهذا الخلل موجودٌ في معظم كتب التفسير المطبوعة، حيث إِنَّ روايةَ حفصٍ هي الروايةُ التي توفرت بها الطباعة من بدايتها، فوُضع نصُّ القرآن في كتب التفسير بهذه الرواية، مع اختلافها مع الرواية المعتمدة لدى كثير من المفسرين، مما أوقع في اللبس لدى القارئ، حيث يقرأ كلاماً للمفسر يختلف عن القراءة التي طُبعت بها الآيات، فيظن أنَّ المفسر قد أخطأ في الفهم. ودونك تفسير الطبري والشوكاني والبيضاوي والجلالين وابن عطية الأندلسي فهي لم تعتمد رواية حفص في التفسير ومع ذلك فالنص القرآني المطبوع فيها هو برواية حفص.

والبيضاوي ليس في ترجمته ما يدل على تلقيه القراءات والاشتغال بها، ولكنَّه في تعامله معها أثناء التفسير يدل على أن لديه قدراً جيداً من المعرفة بالقراءات وتوجيه معانيها، والمتواتر منها من غيره.

كما إِنَّه سار على منهج بعض المفسرين الذين وقعوا في انتقاد بعض القراءات الصحيحة المتواترة، وحكموا على بعضها باللحن، وأحسبه تابع في ذلك الزمخشري الذي وقع في ذلك قبله، وانتقده العلماء في ذلك.(١)

ومن الأمثلة على ذلك في تفسير البيضاوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] قال في قراءة (الأَرحامِ) بالجر: «وقرأ حمزةُ بالجرِّ عطفاً على الضميرِ المجرور، وهو ضعيفٌ؛ لأَنَّه كبعض الكلمة».(٢)

وما ذكره البيضاوي من ضعف قراءة حمزة قول مردودٌ، وقد نقله عن الزمخشري(٣)، وهو مذهب البصريين، وأولهم سيبويه رحمه الله(ت١٨٠هـ) حيث

(١) انظر: البيضاوي ومنهجه في التفسير لعبدالرحمن البشري ١٤٥.
(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٣٢٩-٣٣٠.
(٣) انظر: الكشاف ١/ ٢٤١.

حكم بالضعف على هذه القراءة[١]، وحمزة أحد القراء السبعة المشهورين الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول، وهذه القراءة قرأ بها عبدالله بن مسعود وابن عباس ﷺ، ومن التابعين إبراهيم النخعي والحسن البصري وغيرهم.[٢]

وأما قوله: إنها غير موافقة للعربية فهذا مردود أيضاً، لأن القراءة إذا ثبتت حجةٌ في العربية، وليست القواعد النحوية حجةً على القراءة، وقد أثبت ابن مالك النحوي جواز هذا الوجه في اللغة، واستشهد له بشواهد متفرقة من نثر العرب وشعرها.[٣]

والبيضاوي لا يكتفي بإيراد أوجه اختلاف القراء في الآية، وإنما يوجه القراءات، ويبين وجه كل قراءة، ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ [القصص:٣٧]، حيث قال: « وقرأ ابن كثير ﴿قالَ﴾ بغير واو؛ لأنه قال ما قاله جواباً لمقالهم، ووجه العطف أَنَّ المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ».[٤]

ويستخدم القراءة في ترجيح معنى على معنى في التفسير، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ [البقرة:٣٦] حيث قال: « ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ حينَ أصدرَ زلتَهما عن الشجرة، وحملهما على الزلةِ بسببها، ونظير (عَن) هذه في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ [الكهف:٨٢]، أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضُدُه قراءةُ حمزة فأزَالَهما. وهما متقاربان في المعنى، غير أَنَّ (أَزَلَّ) يقتضي عثرةً مع الزوال ».[٥]

---

(١) انظر : الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٨١.

(٢) انظر : معجم القراءات للخطيب ٢/ ٥-٦.

(٣) انظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/ ٢٤٠ ، البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ١٥٩، الخصائص لابن جني ١/ ٢٨٥.

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ١٥.

(٥) تفسير البيضاوي ١/ ٨٩.

وهو يذكر قراءة يعقوب الحضرمي وهو القارئ الثامن الذي ذكر قراءته، فمن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] قال: « برفع الجزاء والمثلُ قراءةُ الكوفيين ويعقوب، بمعنى فعليه أو فواجبه جزاءٌ يماثلُ ما قَتَلَ من النِّعَم ».(١)

وقوله أيضاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ [المائدة:١٠٧]:«الأوليان: الأَحقَّانِ بالشهادةِ لقرابتهما ومعرفتهما، وهو خبرُ مبتدأ محذوف. أَي: هما الأَوليان. أَو خَبرُ (أَنَّ)، أو مبتدأ خبره (آخران)، أو بَدَلٌ منهما، أو من الضمير في يقومان وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم (الأولين) على أنه صفة للذين أو بدل منه، أي من الأولين الذين استحق عليهم ».(٢)

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٤٦٣.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ٤٧٠.

المبحث الخامس

عناية البيضاوي بالصناعة اللغوية في تفسيره

بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم «صارت علومُ اللسانِ صناعيَّةً، من الكلامِ في موضوعات اللغةِ، وأحكامِ الإعرابِ والبلاغةِ في التراكيب، فوضعت الدواوينُ في ذلك، بعد أَن كانت مَلَكَاتٍ للعربِ لا يُرجعُ فيها إلى نقلٍ ولا كتابٍ، فتنوسي ذلك، وصارت تُتَلقى من كتبِ أصلِ اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن؛ لأَنَّه بلسانِ العرب، وعلى منهاجِ بلاغتِهم، وصار التفسيرُ على صنفين: تفسيرٍ نقلي مُسندٍ إلى الآثار المنقولة من السَّلَفِ، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، والصنفُ الآخرُ من التفسير ما يرجعُ إلى اللسانِ من معرفة اللغةِ والإعراب، والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب، وهذا الصنف من التفسير قلَّ أن يتفرَّد عن الأول، إذ هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صارَ اللسانُ وعلومه صناعةً ».[(١)]

لذلك لا نجد نحواً في كتب التفسير التي سبقت تدوين علم النحو، أو التي ألفت في عصره كتفسير عبدالرزاق الصنعاني(ت٢١١هـ)[(٢)] مثلاً. فإذا وصلنا إلى أبي جعفر الطبري (ت٣١١هـ) وجدناه مع اعتماده على التفسير بالمأثور مهتماً بالنحو ومسائله، وبالصناعة اللغوية المعجمية في دراسة الغريب وتحليل المفردات، سالكاً في نحوه مسلك نحويي الكوفة غالباً.

ومن بعد الطبري يندر أن تجد مفسراً لا يتعرض لذكر المسائل النحوية في

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٣٥-٤٤٠.

(٢) هو أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، حدث عن هشام بن حسان وابن جريج ومعمر والأوزاعي، وحدث عنه أحمد بن حنبل وابن راهوية وغيرهم، توفي عام ٢١١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٥٦٣-٥٧٩.

تفسيره، ذلك أنه لم يكن ليقدم على تفسير القرآن إلا من كان عالماً باللغة العربية وعلومها، حيث أصبح العلم بالعربية شرطاً أساسياً من أهم شروط المفسر، وقد نبه على ذلك البيضاوي عندما قال في مقدمته: «وبعدُ فإن أعظم العلوم مقداراً، وأرفعها شرفاً ومناراً علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها: أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها ».(١)

فهو لا يرضى من المفسر بالمعرفة القليلة للغة وإنما يشترط التفوق في معرفتها، والإتقان لعلومها. وليس الإعراب في كتب التفسير راجعاً إلى علم المفسرين بالنحو فحسبُ، وإنما هناك سببٌ رئيسٌ آخر، وهو أن بيان الإعراب يوضح المعنى ويثبته في الذهن، كما أنه يوجد تنوعاً في المعاني القرآنية، حيث يؤدي اختلاف الإعراب إلى اختلاف المعنى، وهذا كثيرٌ في كتب التفسير.

وصلةُ التفسير بعلم النحو وثيقةٌ، وهي صلةٌ نُدركها بالنَّظرِ إلى مفهوم كُلٍّ مِن علمي التفسير والنحو، فالأول يعني بيان المعنى وكشفه، والثاني يعني إحدى السبل المهمة للوصول إلى ذلك البيان والكشف.

وقد تتبعتُ الصناعة اللغوية في تفسير البيضاوي فألفيته مليئاً بالمسائل النحوية ، وتحليل المفردات، والتوجيهات البلاغية، وسوف أضرب لذلك بعض الأمثلة وأعلق عليها تعليقاً وجيزاً بحسب المقام.

فأما الجانب النحوي في تفسير البيضاوي فقد تأثر بالكشاف للزمخشري تأثراً ظاهراً، ذلك أن البيضاوي يختصر ما يفصله الزمخشري، ثم قد يزيد عليه بذكر آراء لم يأت بها، أو يغفل بعض ما ذكره الزمخشري، أو يرده، والشواهد على هذا كثيرة.

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٥.

من ذلك قول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[النساء:٧٧]: «فإن قلت: ما محل (كَخَشْيَةِ) من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في (يَخْشَوْنَ) أى يخشون الناس مثل أهل خشية اللهَّ، أى مُشبهين لأهل خشية اللهَّ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية اللهَّ، وأشد معطوف على الحال. فإن قلت: لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر ولم تقدر يخشون خشية مثل خشية اللهَّ، بمعنى مثل ما يخشى اللهَّ؟ قلت: أبى ذلك قوله: (أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) لأنه وما عطف عليه في حكم واحد، ولو قلت يخشون الناس أشد خشية؟ لم يكن إلا حالاً عن ضميرِ الفريق ولم ينتصب انتصابَ المصدر؛ لأنَّك لا تقول خشي فلانٌ أَشَدَّ خشيةً، فتنصب خشيةً وأنت تريد المصدر، إنما تقول أشدّ خشيةً فتجرّها، وإذا نصبتها لم يكن أشدَّ خشية إلا عبارة عن الفاعل حالا منه، اللهم إلا أن تجعل الخشيةَ خاشيةً وذاتَ خشية، على قولهم جَدَّ جِدُّهُ فتزعم أَنَّ معناه يخشون الناس خشية مثل خشية اللهَّ، أو خشيةً أَشَدَّ خشيةً من خشية اللهَّ، ويجوز على هذا أن يكون محل (أَشَدَّ) مجروراً عطفاً على: (كَخَشْيَةِ اللهَّ) تريد كخشية اللهَّ أو كخشية أشد خشية منها ».[1]

وقد اختصر البيضاوي هذا الكلام فقال: « كخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى، يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدراً فلا، لأن أفعل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشية أشد خشية منه، على الفرض اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جد جده على معنى يخشون الناس

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٥٣٦.

خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله ».[1]

فالذي زاده البيضاوي هنا هو بيانُ نوعِ الإضافة، وأَنَّ أَفعل التفضيل إذا نَصَب ما بعده لم يكن مِن جنسه.

وربما خالف الزمخشري وضعف ما ذهب إليه، مثلما رد أن يكون اختلاف القراءتين في (إِلاَّ امرأَتَك) من الآية الكريمة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] لاختلاف الروايتين في قصة خروج لوط عليه السلام، فقد قال الزمخشري: «فإن قلت:ما وجه قراءة من قرأ إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب؟ قلت: استثناها من قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ والدليل عليه قراءة عبد الله: فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك.

ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت، على أصل الاستثناء وإن كان الفصيح هو البدل، أعنى قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: روى أنه أخرجها معهم، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت:يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها. وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين».[2]

فقال البيضاوي: « ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: وَلا يَلْتَفِتْ مثله في قوله تعالى:﴿مَّافَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٦٦] ولا يَبعدُ أَنْ يكونَ أكثر القراء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ١٥٤.

بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل على طريقة الاستئناف بقوله: إِنَّهُ مُصِيبُها مَا أَصابَهُمْ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع ».[١]

وهذا احتجاجٌ قويٌ لما ذهب إليه في رَدِّ قولِ الزمخشري، يدلنا على أن البيضاوي كان ذا فكرٍ ثاقبٍ، وبصيرة نافذة، عندما ينقل من الكشاف يعي ما ينقله وعياً تاماً، فلذلك تراه يزيد عليه بياناً، أو يضعفه، أو يرده.

وكان للبيضاوي اهتمامٌ ببيان معاني الحروف، ولكنه لا يتوسع فيها توسع الواحدي في البسيط، أو الزمخشري في الكشاف، ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمْ فِي يُوسُفَ﴾[يوسف:٨٠] حيث قال: «و(ما) مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في موضع النصب بالعطف على مفعول (تعلموا) ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو على اسم (أن) وخبره (في يوسف) أو (من قبل) أو الرفع بالابتداء والخبر (من قبل) وفيه نظرٌ؛ لأن (قبل) إذا كان خبراً أو صلةً لا يقطع عن الإضافة حتى لا ينقص، وأن تكون موصولة أي: ما فرطتموه، بمعنى ما قدمتموه في حقه من الخيانة ومحله ما تقدم ».[٢]

فنلاحظ على هذا المثال أربعة أمور :

١- ذكره للمعاني النحوية التي تحتملها (ما) في الآية الكريمة.

٢- الإشارة إلى أَصلٍ نحوي، وهو عدمُ جواز الفصل بين العاطف والمعطوف بفاصلٍ غير الظرف.

٣- تعليل ما ذهب إليه من ضعف الوجه القائل برفع المصدر (ما فرطتم)

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٨٦.

بالابتداء على أن يكون خبرُهُ (من قبل) بأن (قبل) لا تقطع عن الإضافة إذا وقعت خبراً.

٤- عدم ذكر المعاني المترتبة على هذه الوجوه الإعرابية التي تحتملها(ما)في الآية.

والبيضاوي لا يستشهد إلا بالشواهد الضرورية في المسائل النحوية أو اللغوية، وغالب شواهده مأخوذة من الزمخشري، وقد يضيف أحياناً شواهد ليست عند الزمخشري، وربما أكمل الشواهد الناقصة عند الزمخشري، وقد شُرحت شواهد البيضاوي الشعرية في مؤلفات خاصة.(١)

ويمكن تلخيص منهج البيضاوي النحوي في النقاط التالية:(٢)

١- الإشارة السريعة إلى إعراب الكلمة مع الإحاطة بما تحتمله من وجوه.

٢- ندرة الاهتمام بالعلة النحوية والخلاف النحوي.

٣- الاقتصاد في ذكر الشواهد التي أغلبها من الكشاف.

٤- استخدام المصطلحات البصرية.

٥- الغموض أحياناً بسبب الاختصار الشديد في العبارة.

وقيمة الدراسة النحوية في تفسير البيضاوي تتمثل في تلك الإضافات التي أضافها البيضاوي، وما قام به من نقدٍ لآراء الزمخشري، كما أنَّ هذه الدراسة تعطينا دلالة تاريخية على البراعة في الاختصار والإيجاز، بعد أن ثبتت القواعد واستقرت أصول النحو، وذلك في نهاية القرن السابع الهجري.

---

(١) منها (القول الماضي في شرح شواهد تفسير القاضي) للمحجوب بنسالك، المطبعة والوراقة الوطنية التونسية ، تونس ٢٠٠٠م ، الإسعاف في شرح أبيات القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي.

(٢) انظر: الدراسات النحوية في بلاد فارس من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع، للدكتور بهاء الدين عبدالوهاب عبدالرحمن ١٥٢.

وأما جانب البلاغة في تفسير البيضاوي فهو بارزٌ وظاهر، وقد تأثر بالكشاف للزمخشري كثيراً في ذلك، ولم يخل من إضافات ولمسات تدل على ذوق البيضاوي البلاغي الأدبي العالي، وهو في هذا جاء على ثروة بلاغية ممهدة الطريق، حيث سبقه عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي ترك أثره في بيئته القريبة وما حولها، وكذلك الزمخشري الذي وفق لتطبيق ما قعد له عبدالقاهر الجرجاني من خلال تفسير القرآن في الكشاف.

والأمثلة على البلاغة في تفسير البيضاوي يصعب حصرها، ولكن من تلك الأمثلة ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]. حيث قال: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أيفت[١] مشاعرهم وانتفت قواهم كقوله:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندَهُمْ أذنوا[٢]

وكقوله:

أَصَمُّ عن الشيء الَّذي لا أُريدُهُ وأسمَعُ خَلْقِ الله حينَ أُريدُ[٣]

وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظفَارُه لم تُقَلَّمِ[٤]

---

(١) أَيفَتْ مِن الآفَةِ، وهي العاهةُ تُصيبُ الشيءَ، يقال: أَيِف الزرعُ أي أصابته آفةٌ فهو مئوفٌ مثل مَعُوف، وآفَ القومُ وأُوفوا وإِيفُوا: دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ آفَةٌ. انظر: الصحاح للجوهري (أَوَفَ) ٤/ ١٣٣٣.

(٢) البيت لقعنب بن أم صاحب.

(٣) لم أعرف قائله.

(٤) ديوانه ٤٧.

ومن ثم ترى المفلقين السحرة يضربون عن توهم التشبيه صفحاً كما قال أبو تمام الطائي:

وَيصعَدُ حتى يَظُنَّ الجَهولُ بأنَّ لَهُ حَاجةً في السَّماء[1]

وها هنا وإن طوى ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به، ونظيره:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامة فَتْخاءُ تنفر مِنْ صَفِير الصَّافِرِ[2]

هذا إذا جَعَلْتَ الضمير للمنافقين على أنَّ الآية فذلكة التمثيل ونتيجته، وإن جعلته للمستوقدين، فهي على حقيقتها ».[3]

فهو في هذا المثال كشف عن بلاغة الآية وذكر مصطلح التمثيل والاستعارة، وأورد شواهد شعرية تكشف نظائر هذا في الشعر. وهو متأثر بالزمخشري في ذلك، واختصر بعض شواهده، فهو يأخذ منه ويدع وينتقد في أمثلة كثيرة.

وأما تحليله للمفردات القرآنية فهو متأثر بالراغب الأصفهاني، حيث يختار المعاني الدقيقة التي تدل عليها المفردات بالنظر إلى سياقها، والراغب الأصفهاني متميز بهذا في تفسيره وفي كتابه المفردات، ولعل هذا هو سبب ظن بعض الباحثين أن البيضاوي اعتمد على المفردات وليس على تفسيره الكبير.

(١) ديوانه ٩٨.

(٢) شاعر إسلامي غير معروف يهجو به الحجاج بن يوسف.

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٥٤.

المبحث السادس

أثر علم الكلام في تفسير البيضاوي

نشأ البيضاوي في بيئة وعصرٍ راج فيها علم الكلام وعلم المنطق وعلم الهيئة وغيرها من العلوم العقلية، فطلبها منذ حداثته، وأتقنه، ودرسه على أساتذته، وقرأ كتبه المعتمدة، بل وصنف فيها مصنفات. فصنف في علم الكلام كتاب (طوالع الأنوار من مطالع الأنظار)، وقد وصفه السبكي بأَنه (أَجلُّ مختصرٍ في علم الكلام)[١]. وقد شرحه عدد من العلماء[٢]، وله كتاب بعنوان (الإيضاح) في علم أصول الدين، وله كتاب (مصباح الأرواح) ، وله كتاب (منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى) وكل هذه في العقائد وعلم الكلام. وشرح في علم المنطق كتاب الأرموي[٣] (مطالع الأنوار في المنطق والحكمة)، وله مختصر في علم الهيئة. وعندما صنف تفسيره في آخر حياته، بعد اكتمال آلته العلمية، واستكماله لشروط المفسر، أقبل على المصادر التي عنيت بهذه العلوم من بين كتب التفسير فوجد كتاب الرازي أجمعها لهذه العلوم، فاتخذه مصدراً من مصادره الأساسية التي ظهر أثرها في تفسير البيضاوي.

والبيضاوي عالمٌ متمكن في هذه العلوم العقلية، فقد مزج بين علم الفلسفة[٤]

---

(١) طبقات الشافعية ٥/ ٥٩.

(٢) منهم أبو الثناء الأصفهاني (ت٧٤٩هـ) في كتاب سماه (مطالع الأنظار على طوالع الأنوار) وهو مطبوع، ومنهم أبو بكر المرعشلي الشهير بساجقلي زاده في كتابه (نشر الطوالع) وهو مطبوع بتحقيق محمد يوسف إدريس.

(٣) هو سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي الشافعي، فقيه أصولي منطقي له عدد من المؤلفات في الفقه والأصول والمنطق وغيرها توفي ٥٩٤هـ . انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٥٥.

(٤) هي البحث عن طبائع الأشياء، وحقائق الموجودات. انظر: الفلسفة الإسلامية لعرفان عبدالحميد ٢٨.

وعلم الكلام[١]، وكلا العلمين قد اعتمد أصحابها على العقل، وظهر أثرها في تفسيره فهو كثيراً ما يستعمل في تفسيره لبعض الآيات ألفاظاً فلسفيةً وكلاميةً، مثل عبارة إثبات واجب الوجود[٢]، وخصائص الممكنات وأنَّ القديم[٣] لا يقبل الشركة في ذاته، وتكون العالم من الجواهر والأعراض، وغيرها من الألفاظ التي لم ترد في الكتاب ولا السنة وإنما حفظت عن الفلاسفة والمتكلمين.

ولذلك عندما أراد تعريف التوحيد وافق الجهمية[٤] والمعتزلة والفلاسفة في تعريفهم، وذلك بنفي التعدد والتركيب في الذات الإلهية، ونفي الجسمية والتحيز والجهة، وكلها ألفاظ لم يأت به الشرعُ ولا جاءت في اللغة من قبل، ورغم موافقته في معنى التوحيد للمتكلمين إلا إنه أثبت توحيد الألوهية الذي لا نجد له ذكراً في كتب المتكلمين لأن جلّ اهتمامهم إثبات توحيد الربوبية.[٥]

كما إنه وافق المرجئة[٦] في تعريف الإيمان فهو مجرد التصديق عندهم، ومجرد التصديق القلبي يكفي لاستحقاق المغفرة، والأعمال عندهم خارجة عن مسمى الإيمان.

وأهلُ السنة يقولون: القرآن كلام الله المنزل على رسوله ﷺ غير مخلوق منه بدأ

---

(١) علم الكلام هو علمٌ يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه. انظر:شرح المقاصد للتفتازاني ١/ ٧ .

(٢) لفظ واجب الوجود غير وارد في كلام الله تعالى، ولا في كلام رسوله ﷺ، وقد استحدثه الفلاسفة المتأخرون. انظر : الصفدية لابن تيمية ٢/ ١٨٠.

(٣) القديم والمطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إلى أول، ويعبر عنه بأنه أزلي. انظر: المقصد الأسنى ١/ ٢٤٥.

(٤) الجهمية هم أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وغير ذلك من العقائد الباطلة. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ١/ ١٩٩.

(٥) انظر: البيضاوي وآراؤه الاعتقادية لشريفة المالكي، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى ٤٧.

(٦) المرجئةُ إِنَّما سُمُّوا بذلك لأنهم أخروا العمل عن الإيمان، والإرجاء بمعنى التأخير، فهم زعموا أن الإيمان هو الإقرار فقط . انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ١/ ١٩٠.

وإليه يعود، وكلام الله عند البيضاوي وإن أثبت أنه متكلم إلا أنه على معنى الكلام القديم النفسي القائم بذاته تعالى بغير حرف ولا صوت فهو وافق فيه جمهور الأشاعرة. والنصوص قد دلت أن الله متكلم وكلامه على الحقيقة وأنه بحرف وصوت ونداء متى شاء سبحانه وتعالى.(١)

أما الكلام النفسي الذي يقول به الأشاعرة كالبيضاوي فلا يعقله العقل ولا يدركه، والساكت لا يُعرف ما بنفسه من كلام حتى يتكلم بحرف وصوت وهذا في المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالى.

والبيضاوي في تفسيره من المؤولين الأشاعرة، فقد سار على منهج التأويل في الصفات الخبرية كالوجه والعين واليد، والصفات الفعلية كالاستواء والعلو والنزول والمجيئ وغيرها.

كذلك هو ممن يرى أنَّ أول واجبٍ على المكلف هو النظر ووجوبه عنده بالشرع، وافق فيه الأشاعرة، والنصوص الشرعية قد دلت على أنَّ أول واجبٍ هو توحيدُ الله بعبادته لا شريك له، لا تعريفهم بالربوبية لأنَّها فطرة فطر الله عليها البشر.

وإذا جئنا للإيمان بالله عند السلف نجده إيماناً بالقلب ونطقاً باللسان وعملا بالجوارح، أما عند البيضاوي فقد وافق فيه المرجئة، فهو يراه مجرَّد التصديق، ويرى أنَّ مجردَ التصديق القلبي يكفي لاستحقاق المغفرة، والأعمال خارجةٌ عن مُسمَّى الإيمان. وهذا مخالف للنصوص الشرعية التي دلت على أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ولا يجزئ أحدُهما عن الآخر.

وأما الصفات الأخرى كالمحبة والغضب والعجب والرحمة وغيرها فهو يردها الى معنى الإرادة باعتبارها صفات نفسانية يستحيل اتصاف الباري بها.

---

(١) انظر: العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبدالله الجديع، فقد حرر هذه المسألة.

كذلك شمل التأويل عنده نصوص القدر وبعض نصوص اليوم الآخر، فهو في هذا قد خالف إمام المذهب أبا الحسن الأشعري لأنه قد ذكر في مقالاته مذهب أهل السنة والجماعة وأنه يقول بقولهم، أما في باقي مسائل الاعتقاد فقد وافق فيها السلف.(١)

ومن الأمثلة على هذا في تفسيره قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]: «واعلم أَنَّ دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوهٍ كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلامُ المجمل أَنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة، وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعكس حركاتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها، فلا بد لها من موجد قادر حكيم، يوجدها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته، متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر. فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما، لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه».(٢)

فهو في هذا يبسط الكلام في مسألة كلامية، ويختمها بأن علم الكلام علم شريفٌ

(١) انظر : البيضاوي وآراؤه الاعتقادية للباحثة شريفة المالكي ص ٣٣٩ وما بعدها.

(٢) تفسير البيضاوي ١/ ١٥٥.

لا بد للمفسر منه. والأمثلة الكاشفة عن منهجه العقدي الأشعري ظاهرة ، فقد سار في توحيد الأسماء والصفات على منهج الأشاعرة الذين يثبتون الصفات السبع فقط وهي القدرة والإرادة والحياة والعلم والكلام والسمع والبصر، وما عداها من الصفات الفعلية والخبرية فيؤلونها كالاستواء والعلو والإتيان والغضب والرحمة وغيرها.(١)

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]:« ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال :كلاماً خفياً يُدرك؛ لأنَّه بسرعةِ تمثيلٍ ليس في ذاته مُركباً من حروفٍ مقطعةٍ تتوقف على تموجات متعاقبة ».(٢)

والقارئ في تفسير البيضاوي يجد أثر علم الكلام ظاهراً في معظم التفسير، ولا يكاد يفوت آية لها تعلق بهذا إلا ويشير لمسألة من مسائل علم الكلام في تفسيرها. والذي يدرك مصطلحات المتكلمين يفهم كلامه ويدرك غايته، وأما الذي لا يدرك معاني تلك المصطلحات فإنه لا يكاد يفهم قصد البيضاوي من تلك العبارات الكلامية المستغلقة، التي نقل معظمها من تفسير الرازي .

وقد تتبعه في كثير من تلك الكلاميات أصحاب الحواشي التي كتبت عليه، فردوا عليه فيها، وعابوا إدخاله لها في علم التفسير.

ويبقى من المهم لطالب علم التفسير المتخصص فيه، أن يكون له إلمامٌ بهذه العلوم ومصطلحاتها، ليتمكن من فك رموز كلام البيضاوي والرازي وأمثالهم ممن ملأوا كتبهم بتلك المصطلحات الكلامية.

---

(١) انظر : البيضاوي وآراؤه الاعتقادية للباحثة شريفة المالكي ص ٤٩ .

(٢) انظر : البيضاوي وآراؤه الاعتقادية للباحثة شريفة المالكي ص ٤٩ .

الخاتمة

بعد هذا البحث الوجيز عن التعريف بتفسير العلامة عبدالله بن عمر البيضاوي، وقيمته العلمية، ومصادره التي اعتمد عليها، يمكن أن نخرج بالنتائج التالية :

١- نجاح البيضاوي في تلخيص أهم مسائل الكتب التي اعتمد عليها ويظهر ذلك في غزارة مادته، ومتانة عبارته، وترابط جمله إلى حد ما، واهتمامه باللغة ووجوه الإعراب والبلاغة.

٢- عدم وفاء البيضاوي بما التزمه في مقدمته بذكر تفسير الصحابة والتابعين إلا في مواضع محدودة.

٣- بيانه لمسائل العقيدة الأشعرية وأصول الفقه، والأحكام الفقهية، وإقلاله من ذكر الإسرائيليات والروايات الباطلة التي وردت في بعض التفاسير.

٤- غلب على البيضاوي أثناء تأليفه حرصه على تلخيص عبارات الزمخشري والرازي والأصفهاني فوقع في بعض الخلل في الاختصار، مما سبب غموضاً في بعض المواضع، ولولا هذا الغموض والاختصار المخل أحياناً لكان تفسير البيضاوي من أكثر التفاسير توفيقاً في استخدام النحو لجلاء المعنى.

٥- عاب البيضاوي تفسيره بمسائل علم الكلام التي أقحمها في تفسيره تأثراً ببيئته وبتفسير الرازي الذي اعتمد عليه في ذلك.

٦- للبيضاوي استنباطات أصولية من الآيات القرآنية، وهو أصولي حاذق.

٧- البيضاوي اختصر آراء الزمخشري النحوية وغيره من المفسرين، فالنحو عنده يتميز بسمة الاختصار مع الإحاطة، ويكاد يقتصر على بيان المعنى النحوي وما يؤديه هذا المعنى من دلالة بلاغية.

٩- ينبغي على المتصدي لدراسة أو تدريس تفسير البيضاوي إجادة مصطلحات علم البلاغة وعلم الكلام كي يدرك مقاصد البيضاوي.

فهرس المصادر والمراجع

١. **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي**، تحقيق مركز الدراسات بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢. **أسباب النزول** للواحدي ، تحقيق ماهر ياسين، دار الميمان ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٣. **الإمام البيضاوي** لمحمد الزحيلي، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

٤. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي**، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، ود.محمود محمد الأطرش، دار الرشيد ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

٥. **أنوار الحقائق الربانية في تفسير الآيات القرآنية** لأبي الثناء الأصبهاني ، تحقيق د.إبراهيم الهويمل، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤٠٩هـ. (لم تطبع).

٦. **اهتمام مفسري القرن الحادي عشر بتفسير البيضاوي** لمحمد إدريس ، بحث منشور بمجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ، المجلد ٢٩ ، العدد الثاني ٢٠١٣ .

٧. **البحر المحيط في التفسير** لأبي حيان الغرناطي، دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٨. **البداية والنهاية** لابن كثير ، تحقيق عبدالله التركي ، دار هجر ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٩. **بلدان الخلافة الشرقية** للمستشرق كي لسترنج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٥هـ.

١٠. **البيضاوي مفسراً**، لعبدالعزيز حاجي، دار الجماهيرية بليبيا، بدون تاريخ.

١١. **البيضاوي وآراؤه الاعتقادية: عرض ونقد من خلال تفسيره**، لشريفة أحمد المالكي، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، عام ١٤٢٩-١٤٣٠هـ. (لم تطبع)

١٢. **البيضاوي ومنهجه في التفسير** ليوسف أحمد علي، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ .

١٣. **البيضاوي ومنهجه في التفسير**، لعبدالرحمن بن علي ناشب البشري، رسالة ماجستير بجامعة الإمام، عام ١٤٠٤هـ .

١٤. **تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواردیها، المشهور بتاريخ بغداد** للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق د.بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١٥. **تجريد أسماء الصحابة** للذهبي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت، دون تاريخ.

١٦. **تفسير ابن كثير** ، تحقيق حكمت بشير ياسين ، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

١٧. **تفسير الراغب الأصفهاني** ، حققه ونشره د.عادل الشدي ونشره في دار الوطن بالرياض عام ١٤٢٤هـ.

١٨. **تفسير القرآن بالقرآن** للدكتور محسن بن حامد المطيري، دار التدمرية بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ .

١٩. **التفسير الكبير** لفخر الدين محمد بن عمر الرازي ، دار الفكر، طبعة مصورة، ١٤١٠هـ.

٢٠. **التفسير النبوي للقرآن** للدكتور خالد الباتلي، دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٢١. **التفسير ورجاله** لمحمد الفاضل بن عاشور ، الطبعة الثانية ، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس، ١٩٩٨م.

٢٢. **التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح** للعراقي ، دار الحديث للطباعة، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

٢٣. **حاشية عبدالحكيم السيالكوتي على تفسير البيضاوي**، دار الطباعة العامرة ، ١٢٧٠هـ.

٢٤. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** لأبي نعيم الأصفهاني، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ.

٢٥. **الخصائص** لابن جني، تحقيق محمد بن علي النجار، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ.

٢٦. **الدراسات النحوية في بلاد فارس من بداية القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع**، للدكتور بهاء الدين عبدالوهاب عبدالرحمن، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٢٧. **درة الأسلاك في دولة الأتراك**، للحسن بن عمر بن حبيب (مصورة مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠).

٢٨. **الرازي مفسراً**، للدكتور محسن عبدالحميد ، دار الحرية بغداد ، ١٣٩٤هـ.
٢٩. **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات** تأليف محمد باقر الموسوي الخوانساري، ط.الدار الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٣٠. **سر صناعة الإعراب** لابن جني ، تحقيق د.حسن هنداوي، دار القلم، ١٤٠٥هـ.
٣١. **سير أعلام النبلاء** للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
٣٢. **الشاهد الشعري في تفسير القرآن** للدكتور عبدالرحمن الشهري، ط. دار المنهاج بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
٣٣. **طبقات الشافعية الكبرى للسبكي**، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار هجر للطباعة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
٣٤. **طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة**، تصحيح عبدالحليم خان، دار الندوة الجديدة ، بيروت.
٣٥. **طبقات المفسرين لمحمد بن علي الداودي**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة بالقاهرة. دون تاريخ.
٣٦. **علوم الحديث** لابن الصلاح ، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، دار الفكر ، طبعة مصورة ١٤٠٦هـ.
٣٧. **الغاية القصوى في دراية الفتوى** لعبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق د.علي القره داغي، ط. دار الإصلاح بالدمام ، دون تاريخ.
٣٨. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية بالقاهرة، دون تاريخ.
٣٩. **الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي**، للحافظ المناوي، تحقيق أحمد مجتبى السلفي، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٤٠. **الفتح المبين في طبقات الأصوليين** للمراغي، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.
٤١. **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**، للإمام شرف الدين الحسين بن عبدالله الطيبي،

تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف د.محمد عبدالرحيم سلطان العلماء، ط.جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.

٤٢. **الفرق بين الفرق** تأليف عبدالقاهر البغدادي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار المعرفة ، بيروت، دون تاريخ.

٤٣. **فصول في أصول التفسير**، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي ، الإصدار الثاني ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٤٤. **الفلسفة الإسلامية: دراسة ونقد**، لعرفان عبدالحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ .

٤٥. **القاضي البيضاوي وأثره في أصول الفقه**، للدكتور جلال الدين عبدالرحمن،مطبعة السعادة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٤٦. **القراءات الشاذة وتوجيهها في تفسير القاضي البيضاوي**، لمحمد غياث الجنباز، دار طيبة الخضراء ، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٤٧. **قراءات الإمام حمزة والانتصار لها**، للأستاذ الدكتور سامي عبدالفتاح هلال، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٤٨. **قواعد الترجيح عند المفسرين** للدكتور حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٤٩. **الكتاب** لسيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، ١٤٠٨هـ .

٥٠. **الكشاف** لمحمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق عادل عبد الموجود و علي محمد معوض ط.مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٥١. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** لحاجي خليفة ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

٥٢. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية** ، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، عام ١٤١٦هـ.

٥٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ.

٥٤. **مرآة الجنان** لليافعي ، مؤسسة الأعلمي بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ .
٥٥. **مراصد الاطلاع عن أسماء الأمكنة والبقاع** للبغدادي ، دار المعرفة ببيروت، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ.
٥٦. **المستدرك على الصحيحين** للحاكم النيسابوري، مكتبة النصر الحديثة بالرياض دون تاريخ.
٥٧. **معجم القراءات** للدكتور عبداللطيف الخطيب، دار سعد الدين، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ.
٥٨. **مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير** للدكتور مساعد الطيار، ١٤٢٩هـ.
٥٩. **مقاييس اللغة** لابن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٦٠. **مقدمة ابن خلدون** ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، بدون تاريخ.
٦١. **مقدمة جامع التفاسير** للراغب الأصفهاني حققه ونشره د.أحمد حسن فرحات ، مكتبة الدعوة بالكويت عام ١٤٠٥هـ .
٦٢. **مقدمة في أصول التفسير** لابن تيمية ، تحقيق عدنان زرزور، دار علوم القرآن بدمشق، عام ١٣٩١هـ.
٦٣. **نموذج من الأعمال الخيرية** لمحمد منير الدمشقي، مطبعة المنار ، ١٣٤٦هـ.
٦٤. **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار** لجلال الدين السيوطي، وهي حاشيته على تفسير البيضاوي ، عدة رسائل دكتوراه بجامعة أم القرى بإشراف د.أمين باشا عام ١٤٢٣هـ (لم تطبع).
٦٥. **وفيات الأعيان** لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس ، الدار الثقافية.بيروت، بدون تاريخ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٢٩
المقدمة	١٣٠
الفصل الأول : التعريف بالبيضاوي وتفسيره ومصادره	١٣٤
المبحث الأول : التعريف بالبيضاوي	١٣٤
المبحث الثاني : التعريف بالتفسير ومنهجه	١٣٩
المبحث الثالث : مصادر تفسير البيضاوي	١٤٥
الفصل الثاني : أصول التفسير في تفسير البيضاوي	١٥٦
المبحث الأول : عنايته بتفسير القرآن بالقرآن	١٥٧
المبحث الثاني : عنايته بتفسير القرآن بالسنة	١٦٣
المبحث الثالث : تفسير السلف في تفسير البيضاوي	١٦٩
المبحث الرابع : القراءات في تفسير البيضاوي	١٨٠
المبحث الخامس : عناية البيضاوي بالصناعة اللغوية	١٨٥
المبحث السادس: أثر علم الكلام في تفسير البيضاوي	١٩٣
الخاتمة	١٩٨
فهرس المصادر والمراجع	١٩٩
فهرس الموضوعات	٢٠٤